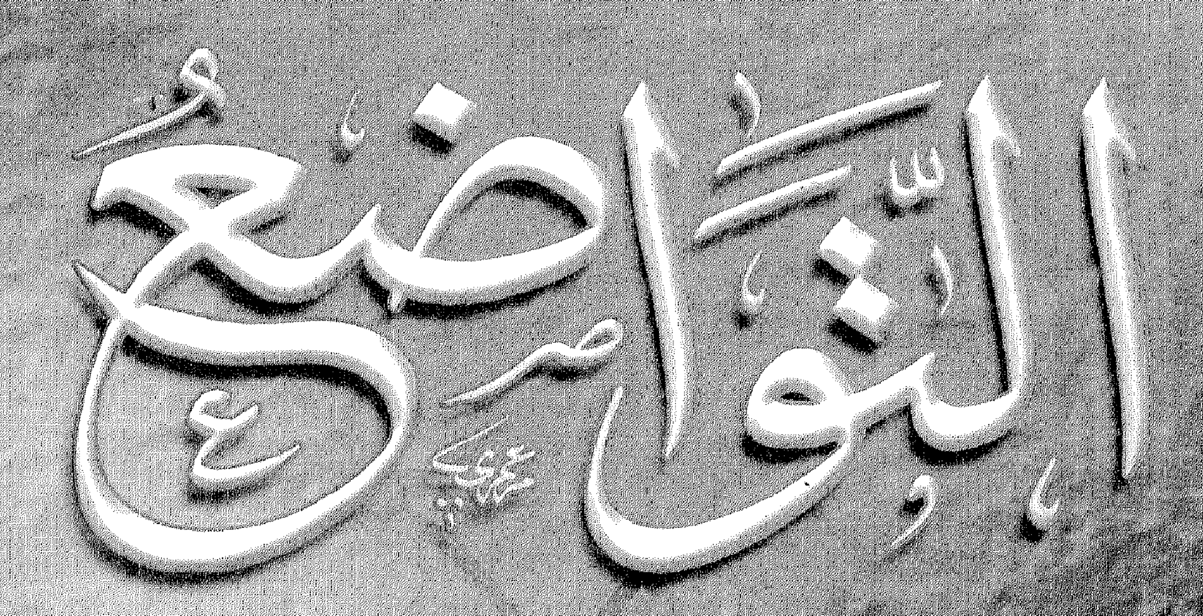
واحة الخلق العظيم



التواضع

تأليف أم عبد الرحمن

مليحة مرعي العدل

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩




التواضع



واحة الخلق العظيم

التواضع

تأليف أم عبد الرحمن

ملیحة مرعي العدل

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩



بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

رقم الإيداع ٨٧٢٧ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى

977-331-096-5

دار الإيمان ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
للطبع والنشر والتوزيع تليفون وفاكس ٥٤٥٧٧٦٩ تليفون ٥٤٤٦٤٩٦

E-mail: dar_aleman@hotmail.com

المقدمة :

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فجعله هادياً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

الحمد لله الذى اصطفى أنبياءه على سائر بنى الإنسان ، فجعله خليفة فى أرضه ومناط تكاليفه ، الحمد لله الذى اصطفى أنبياءه على سائر بنى الإنسان ، فأرسلهم إلى الأمم لتهديهم طريقه ، وصلى الله وسلم وبارك على من اصطفاه وأدبه فأحسن تأديبه ، وخلّقه بخُلُق القرآن ، وجعله إمام الأنبياء وأميرهم ، فأنار به السبيل ، وجعله الحجة والدليل ، فهنيئاً لمن اقتفى أثره واهتدى بهداه ، وويل لمن امتهن نفسه فخالفه وعصاه .

وبعد :

فما أحوجنا إلى أن نقف وقفة صدق مع أنفسنا ، لندرس الأسباب الحقيقة التى أدت بالمسلمين إلى تلك الحالة المذهلة من التأخر والإنحطاط ، وأودت بروح الإسلام فى قلوب كثير من المسلمين ، فخلفتهم قوالب فارغة من محتواها ، وبريقاً دونه كل ظلمة وكثافة ، حتى تداعت علينا كلاب الأرض تداعي الجوعى النهمين إلى وليمة عامرة بلا حِجابٍ أو حُجّاب ، وانقضت علينا انقضاض ذئب حاقد على شاة مسكينة نام عنها راعيها ، وسلبت منا أسباب عزتنا فتجرعنا مرارة الأيتام على موائد اللئام ، وكانت تلك الجراح النازفة فى قلب الأمة نزفاً بلا انقطاع ، وكانت تلك الآلام المبرحة فى جسد الأمة الصابر المثابر ، الذى يتحدى الآلام ويأبى الفناء فتحقق فينا قول من لا ينطق عن الهوى ﷺ : « **يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ **قال** : **بل أنتم يومئذ**

كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل »[1] .

وما ذلك لثغرة في حصن الإسلام ، فالإسلام فيه كل مقومات البقاء والرفعة والتفوق ، لكن الأسباب التي أدت بنا إلى تلك الحالة المذرية من الوهن ، هي الإنحراف عن المنهج القويم ، والتخلي عن أخلاق سيد المرسلين ﷺ ، ذلك أن الدين المعاملة ، بل إن العبادات تنطوي في جوهرها على ترسيخ الأخلاق الحسنة والسلوكيات المهذبة في نفس المؤمن الحق .

فالصلاة تهذب السلوك الإنساني وتبعده عن فاحش القول ومنكر العمل ، قال تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ [العنكبوت : ٤٥] . وبغير هذا الإنضباط الأخلاقي تكون الصلاة مجرد طقوس جوفاء ، لا روح فيها ولا حياة .

والزكاة والصدقة إنما هما توثيق لخلق الرحمة والتعاطف والتكافل في المجتمع ، فتنتشر فيه المحبة والألفة التي تطهره من كل حقد وضغينه ، شريطة الإحسان إلى مشاعر المحتاج ، وحفظه من المن والأذى ، وإلا فما تحقق الهدف الرئيسي منها ، قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة . ٢٦٤] .

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود بسند صحيح

والصوم إنما يدرب على التقوى التي هي رأس كل فضيلة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، وبغير التقوى التي تهذب السلوك والمشاعر لا يكون لصاحب الصوم منه إلا الجوع والعطش .

والحج إنما هو تهذيب للمشاعر والسلوك أيضاً ، وضبط للأفكار والأقوال ، وتدريب على إتزان الإنفعال ، قال تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وإن لم تتحقق في الحج تلك الصورة الرائعة من الإنضباط وحُسن الخُلق ، فرثاءً لمن أضاع ماله وبذل جهده وعاد عوداً غير محمود وهو صفر اليدين ، ورأس كل هذا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، التي توقف العبد عند حدود نفسه وتوقفه على عظمة خالقه ، فيمضي على منهج نبيه ﷺ طائعاً مستقيماً ، وكما رأينا فالأخلاق هي شرايين الدين التي تعمل على بقائه غضاً طرياً ، كما أنزله الله عز وجل ، بل هي حصن الأمة ومقومات بقائها ، إذ إنهيار الأمم هو النتيجة الحتمية لانهيار أخلاقها ، وصدق شوقي – رحمه الله – إذ يقول :

إنمـا الأمم الأخـلاق ما بقيـت   فإن هُمُ ذهبـت أخلاقهـم ذهبوا

لهذا كان لابد من الرجوع إلى أخلاق الإسلام ، إذا أرادت الأمة أن تعود لسابق عهدها من القوة والحيويـة والعنفوان ، وأخـلاق الإسـلام إنما تستـقى – من نبعها الصافي – من أخلاق من كان خُلقه القرآن ﷺ .

من هنا كان لزاماً علينا أن نلوذ بواحـة الخُلـق العظيم ، التي هـي دائماً – يانعة خصيبة – وسط ما حل بنا من جدب السلوك ووعورة المعاملات ،

نستروح فيها علّنا نقتبس منها قبساً نورانياً ، يعيد الحياة الحقيقية إلى مشاعرنا وقلوبنا وسلوكنا فيبرز دورنا - كما كان من سابق عهده - متصدراً خارطة الحياة .

وقد وفقنا الله تبارك وتعالى للتحليق فى جنياتها ، **وأفاد علينا من بركاتها** ، فكانت بحمد الله تلك السلسلة - التى أرجو من الله أن تكون مباركة - من أخلاق رسول الله ﷺ ، وكفى بها شرفاً وسؤدداً أن عشنا بها مع رسول الله ﷺ لحظات جدّ قصيره ، لكنها مباركة رائعة .

وتضم تلك السلسلة [**واحة الخُلق العظيم**] باقة كريمة من أخلاق رسول الله ﷺ منها [**الرحمة ، الحلم ، التواضع ، الحياء ، الجود ، الزهد ، العدل ، الوفاء ، الصدق والأمانة ، الشجاعة**] .

والتى ارتأى الأستاذ الناشر أن يستقل كل خُلق منها بكتاب تيسيراً للقارئ وإتماماً للفائدة .

وموعدنا فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى مع [**خُلق التواضع**] ، وما يحمل فى طياته من صدق العبودية لله عز وجل ، ومن جمال النفس ورقة الطبع ودفء المشاعر .

لكننى بداية أقدم معذرتى سيدى يارسول الله ﷺ ، فإنى لست أهلاً لتلك المهمة الجليلة ، لكننى أطمع أن أحظى بشرف المحاولة ، فهل تقبل منى تلك المحاولة ؟ .

كتبه

مليحة مرعي العدل

غفر الله لها ولوالديها وللمسلمين

واحة الخلق العظيم
[التواضع]

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الحجر : ٨٨] .

[التواضع]

أ - بين يدي الكتاب

« وإن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد » [١] .

حين يشتد الهجير فغاية النفس شجرة حانية وارفة الظلال .

وحين يشتد الجفاف ، فمنية القلب غيث من رواء .

وحين تضيق الأرض فأين الوجهة إلا السماء .

وما زلنا نحتمي من قسوة الهجير بظلال واحة الأخلاق النبوية الغناء ، نستظل بدفئها الحاني ، ونرتوى بنبعها العذب ، ونرتقي فيها من ضيق الأرض إلى رحابة السماء .

والرياض المحمدية بارعة الروعة ، رائعة الجمال ، ساحرة الأريج ، يحث السير فيها راكب الجد ، فلا يكاد يقطع ظل غصن واحد ، وكلما أبحر إزداد البحر عمقاً وامتداداً ، وازداد نفيس الدُّر تألقاً على قمة الغصون .

وما نحن بالغواصين فنحسن التنقيب عن الأصداف ، وما مركبنا من النجابة بحيث يحث بنا المسير ، ولكن حسبنا رشفات تنعش القلب ، وتبقى فيه على سر الحياة ، ولشد ما أدهشني– وكل ما هنا مدهش مثير – دوحة التواضع ووجه الدهشة أن أعظم رجل عبر رحلة الإنسانية الطويلة ، هو نفسه صاحب أوفر قدر من التواضع الجم ، وجمال النفس ، وحُسن الخُلق ، بل كثيراً ما كان يلهج لله بخالص الدعاء أن يرزقه من الأخلاق أحسنها ، عن عليّ بن أبى

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥)

طالب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « **إهدني لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها ، لا يصرف عن سيئها إلا أنت** » (١) .

ومن أحسن الأخلاق خُلق التواضع ، فما هو التواضع ؟ .

يقول الدكتور أحمد الحوفى : « والتواضع تنزل بالنفس في غير ابتذال لها ولا تهاون بقدرها ولا تجرئة للآخرين على الاستخفاف بمكانة المتواضع » (٢) .

التواضع إذاً صفة جليلة تؤلف القلوب ، وتفتح مغاليقها ، تجعل صاحبها جليل القدر ، رفيع المكانة ، كلما إزداد تواضعاً ، تألق عظمة ، وسمواً ، وعلا قدره عند الله عز وجل ، ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص : ٨٣] . ومن أتقى من رسول الله ﷺ ؟! .

لهذا كان رسول الله ﷺ جمَّ التواضع ، لا يعتريه كبر ولا بطر على رفعة قدره وعلو منزلته - وحشاه من الكبر والبطر حاشاه - إذ أنه نبت أرضى لكنه استنبت بغيث السماء ، واغتذى بخلق السماء وتنفس آداب السماء ، فكان إنساناً أرضى المولد والنشأة ، سماوى التعهد والتنشئة ، تمشي رجلاه في الثرى والحصى والسبخ ، لكنه يرقى بهامته إلى عنان السماء ويحوِّم بفكره في ملكوت الله ويطوف بقلبه حول عرش الرحمن فكان إنسان أى إنساناً ؟ .

أكـرم بخلـق نبـى زانـه خُلُـق بالحسـن مشتمـل بالبشـر متسـم
كالزهـر فى تـرف والبـدر فى شرف والبحر فى كرم والدهر فى هِمَمِ (٣)

---

(١) صحيح مسلم برقم (٧٧١) .
(٢) من أخلاق النبى ﷺ .
(٣) البردة للبصيرى .

ومع هذا « لم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لأنه كان يجلس حيث ينتهي به المجلس ، ويجلس بين ظهرانيهم فيجئ الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه » (١) .

ذلك أنه ﷺ لم يكن ليحب أن يرهب أصحابه أو ينأى بنفسه عنهم ، فقد روى عن أنس قوله : « ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ وكنا إذا رأيناه لم نقم لما نعلم من كراهته لذلك » (٢) .

« وما عاب مضجعاً إن فرشوا له اضطجع ، وإن لم يفرشوا له اضطجع على الأرض ، وكان فراشه من أدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه ، وعرضه ذراع وشبر أو نحوه ، وكان ينام على الحصير ليس ثمة غيره » (٣) .

هكذا كان رسول الله ﷺ تواضعاً وخفض جناح ، ورحمة بعباد الله تبارك وتعالى ، ولِمَ لا و « التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله » (٤) .

وهل من أحد أعلم بالله سبحانه وتعالى من رسول الله ﷺ ؟ .

وهل من أحد فى محبة الله سبحانه وتعالى وإجلاله يدانى رسول الله ﷺ ؟ .

---

(١) الإحياء .
(٢) رواه مسلم .
(٣) إحياء علوم الدين .
(٤) علو الهمة .

الفصل الأول
تواضعه ﷺ للرجال

المبحث الأول : وقد وارى التراب بياض بطنه .

المبحث الثاني : فجلس على الأرض .

المبحث الثالث : فقام النبي ﷺ يناجيه .

المبحث الرابع : يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها .

المبحث الخامس : فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم .

المبحث السادس : وكفى بين كفيه .

المبحث السابع : لكنى أفقد جليبياً .

المبحث الثامن : ولا رآنى إلا تبسم .

المبحث التاسع : فاحتضنه من خلفه .

المبحث الأول

[وقد وارى التراب بياض بطنه]

ترنيمة حب وإيمان ، معزوفة تضحية ويقين ترددها جنبات الرياض الشذية وتعزفها أنامل النور على أوتار التواضع والإيثار ، فتطرب القلوب الحية على مر العصور والأزمان ، قادنا للاستمتاع بروعتها والوقوف لجلالها البراء بن عازب رضي الله عنه إذ قال : « رأيت رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول :

لـولا أنـت ما اهتدينـا	ولا تصدقنا ولا صلينـا
فأنزلـن سكينـة علينـا	وثبت الأقـدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغو علينا	إذا أرادوا فتـنـة أبيـنـا [(١)]

القـائد الأعلى لقـوات المسلمين بين جنوده ، جمّ التـواضع ، عظيم الإحسان ينزل على رأى أحدهم فى وضع الخطة الحربية ، ويسارع فى التنفيذ فيحفر كأحدهم ، وينقل التراب مثلهم ، ويجهد نفسه فى العمل حتى يوارى التراب بياض بطنه الشريف ﷺ ، وهو الذى لو كلف أحدهم نقل أُحدٍ من مكانه لجد فى العمل وواصل الليل بالنهار برضى نفس ، وفيض سعادة لا يألو جهداً مهما كابد الصعاب ، واستيقن الهلاك لأن همّه الأعظم هو مرضاة الله جل علاه ، ورسوله ﷺ .

ورسول الله ﷺ على يقين بكل هذا إلا أنه لا يحب أن يترفع عليهم فى شيء ، لذلك فهو يحمل التراب معهم ويكابد مكابدتهم ، بل وهو المنتدب

---

(١) صحيح البخارى ، باب حفر الخندق ، كتاب الجهاد والسير .

دائماً للمعضلات والشدائد ، وأخذ رسول الله ﷺ يعزف على أوتار قلوبهم ، ويشد من أزرهم ، ويروح عن نفوسهم بهذا القول المضيء « لوا أنت ما هتدينا ... وهى أبيات رائعة لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه يلهج فيها بذاك الدعاء الشجى الندى ، ويعلم رسول الله ﷺ أن القوم أهل أدبٍ وفن أربابِ لغة وتذوق ، فقد أخذ ينعشهم ببعض القول الطيب الرطيب ، لعله يخفف بعض متاعتهم ، ويلهب الحماسة فى قلوبهم ، ويجدد العهد بينهم وبين الله تبارك وتعالى على نصرة الدين ، واحتمال ما يلاقوا من جهد وإن كان مضنٍ شاق .

ويصور لنا الشيخ الأديب سيد قطب – رحمه الله – بعبارته الرقيقة الرشيقة بعضاً من مواقف يوم الأحزاب التى تشع على الوجود فيضاً نورانياً لأروع معانى الإخلاص والإيمان للصحابة الكرام فى ظل عظمة تواضع الرسول العظيم ﷺ فيقول :

« خرج رسول الله ﷺ يعمل فى الخندق مع المسلمين ، يضرب بالفأس ، ويجرف التراب بالمسحاة ويحمل التراب فى المكتل ، ويرفع صوته على المرتجزين ، وهم يرفعون أصواتهم بالرجز « أى الإنشاد » فى أثناء العمل فيشاركهم الترجيع ... وكان هناك رجل من المسلمين اسمه جعيل ، فكره رسول الله ﷺ اسمه وسماه عمراً ، فراح العاملون يغنون جماعة بهذا الرجز :

سماه من بعد جعيل عمراً وكان للبائس يوماً ظهراً

فإذا مروا فى ترجيعهم بكلمة « عمراً » قال رسول الله ﷺ : « عمراً » ، وإذا مروا بكلمة « ظهرا » قال رسول الله ﷺ : « ظهرا » .

ولنا أن نتصور هذا الجو الذى يعمل فيه المسلمون ، والرسول ﷺ ، يضرب بالفأس ويجرف بالمساح ويحمل فى المكتل ، ويرجع معهم هذا الغناء ، ولنا أن نتصور أية طاقة يطلقها هذا الجو فى أرواحهم ، وأى ينبوع يتفجر فى كيانهم

بالرضا والحماسة والثقة والاعتزاز .

وكان زيد بن ثابت فيمن ينقلون التراب ، فقال ﷺ : أما إنه نعم الغلام ، وغلبته عيناه فنام فى الخندق ، وكان القر شديداً ، فأخذ عماره بن حزم سلاحه ، وهو لا يشعر ، فلما قام فزع فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا رقاد ! نمت حتى ذهب سلاحك ؟ » ثم قال : « من له علم بسلاح هذا الغلام » ، فقال عماره : يارسول الله هو عندى ، فقال : فرده عليه ، ونهى أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعباً » .

وحادث كذلك يصور يقظة العين والقلب لكل من فى الصف ، صغيراً وكبيراً ، كما يصور روح الدعابة الحلوة الحانية الكريمة « يا أبا رقاد ، نمت حتى ذهب سلاحك ؟ » ويصور فى النهاية ذلك الجو الذى كان المسلمون يعيشون فى كنف نبيهم فى أحرج الظروف .

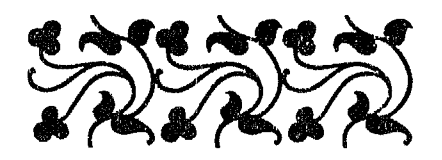
قال ابن اسحاق : وحدثت عن سلمان الفارسي أنه قال : « ضربت فى ناحية من الخندق فغلظت عليّ صخرة ، ورسول الله ﷺ قريب منى ، فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان عليّ ، نزل فأخذ المعول من يدى فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقةٌ . قال : ثم ضرب ضربة أخرى فلمعت تحته برقةٌ أخرى ، قال : ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقةٌ أخرى .قال : قُلت بأبى أنت وأمى يارسول الله ، ما هذا الذى رأيت لمع المعول وأنت تضرب ، قال : « أو قد رأيت ذلك ياسلمان ؟ » قال : قلت : نعم ، قال : أما الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح بها عليّ الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق » .

ولنا أن نضيف إلى تلك الصورة الوضيئة صورة حذيفة عائداً من استطلاع خبر الأحزاب وقد أخذه القرى الشديد « أى البرد الشديد » ورسول الله ﷺ قائم

يصلي في ثوب لإحدى أزواجه فإذا هو في صلاته واتصاله بربه ، لا يترك حذيفة يرتعش حتى ينتهي من صلاته ، بل يأخذه صلوات الله وسلامه عليه بين رجليه ويلقي عليه طرف الثوب ليدفئه في حنو ، ويمضي في صلاته حتى ينتهي »[1] .

صورة رائعة لجيش عظيم ، استمد عظمته من تواضع قائده العظيم ، ومن إخلاص جنوده الأتقياء البرره ، وحرصهم على إعلاء كلمة الحق رغم تحزب الأعداء عليهم وحرصهم على إطفاء النور الذى معه ...

ولكن هيهات هيهات ! إذ جاء نصر الله المبين ، ففر الجبابرة مدحورين وكفى الله المؤمنين القتال بصدق إيمانهم ، وإخلاص نياتهم ، وعظمة رسولهم ﷺ ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب ٢٥] .



---

(١) في ظلال القرآن (جـ٥) تفسير سورة الأحزاب .

المبحث الثانى
[فجلس على الأرض]

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾[الأعراف : ١٤٦] .

هل لمخلوق حق التكبر والتجبر والخيلاء فى مملكة الخالق ؟ .

كيف وقد خلق من العدم فما ملك بداية حق القبول أو الاعتراض على وجوده ؟ .

كيف ولم يملك لحظه ميلاده أو لحظة نهايته ؟ .

كيف ولم يَخْتر جنسه أو لونه أو حتى أباه وأمه ؟ .

كيف ولم يعلم عمره أو رزقه أو قدره ؟ .

كيف وبدايته نطفه مذره ، ونهايته جيفة قذره ، وبين ذلك يحمل العذرة ؟

كيف وهو المخلوق الضعيف الذليل الذى لا يملك حولاً ولا طولاً ولا قوة وإن عز وملك ؟ ، فالعزة لله وحده والملك ، وإن سمى وارتقى فإن المنة لله وحده والفضل ، وإن امتطى صهوة الأسباب ، فإن المسبب هو الله وحده .

لهذا كان التواضع منهج إسلامى قويم يحسن قبض لجام النفس ويكبح جماح الغرور والكِبر فيها ويوقفها على حقيقتها فلا تعدو قدرها .

إنما تنطلق فى حدود طاقتها متخذة التواضع مركباً نجيباً لكل مفازة من مفازات الخير ، أما بغير التواضع فالعلم جسم بلا روح ، والمخالطة نفور بلا تقارب ، والسلطة شاطئان بلا جسور ، فالإنسان المتكبر معزول عن الناس بغلالة كبره ، والحاكم المتكبره معزول عن الرعية بسجن تكبره ، والعالم المتكبر معزول

عن طلاب العلم بقبح تكبره ، فالكبر فى كل أحواله شر وقبح ورزيله ، ذلك أن الكبر آفة العلم ، وعيّ العلماء ، ودمامة الوجهاء ، وبضاعة الفارغين .

أما المؤمن الحق فكلما استمسك بالمنهج القويم ، ازداد نفوراً من الكِبر ، وكلما ازداد علماً بالله ، ازداد خشوعاً لله وتواضعاً ، ولين جانب وحسن عشرة لخلق الله « وأحق من كان للكِبر مجانباً ، وللإعجاب مبايناً ، من جل فى الدنيا قدره وعظم فيها خطره لأنه قد يستقل بعالى همته كل كثير ، ويستصغر معها كل كبير » (١) .

من هناك فقد كان أعلم خلق الله بالله ، وقائد مسيرة العبودية الحقة إلى الله ، ومصباح الهدى فى سماء الإنسانية ، فى قمة التواضع والرقة وخفض الجناح رغم جليل قدره وعظيم خطره ﷺ .

عن عبد الله بن عمرو « أن رسول الله ﷺ ذكر له صومى فدخل عليّ فألقيت له وسادة من أدم حشوها ليفاً فجلس على الأرض وصارت الوسادة بينى وبينه فقال : أما يكفيك من كل شهر ثلاثة أيام ، قال : قُلت يارسول الله : قال خمساً ، قلت : يارسول الله ، قال : سبعاً . قلت : يارسول الله ، قال : تسعاً » (٢) .

يذكر لرسول الله ﷺ صوم عبد الله بن عمرو ، الصوام القوام ، المجتهد فى العبادة ، فيشفق عليه أيّما إشفاق ، فلا ينتظر أن يأتى صاحبه ، بل يحث إليه المسير ، بقلب محب ، ووجدان مشفق حاني ، ليثنيه عن أخذ نفسه بتلك الشدة ، التى تضعف جسده ، وتوهن قواة إذ المؤمن القوى خير وأحب إلى الله ، واحتفاءً بالضيف العظيم ، يقدم له المضيف وسادة ليجلس عليها ، وسادة

---

(١) أدب الدنيا والدين .

(٢) البخارى باب صوم داود عليه السلام ، كتاب الصوم .

ليست من الحرير الحانى ، ولا من القطن اللين ، وإنما أدم حشوها ليف ، تذوب خجلاً ، وتأنَفُ لرسول الله ﷺ أن يطأها ، ولكن حسبها أنها أقصى ما تيسر .

غير أن رسول الله ﷺ يرغب عنها إلى الأرض تواضعاً وتودداً ، وإيثاراً أن يصبح مقعده الوثير قلب صاحبه المحب ، فتتنزل منه النصيحة منزلاً ممهداً للرضا والقبول .

وها هو رسول الله ﷺ يجلس من قلب صاحبه ، في شغاف لم يصلها بشر قط ، ويُحلّق من وجدانه ، في آفاق لم يبلغها بشر قط .

أقبل رسول الله ﷺ على صاحبه بفيض حبه وجم تواضعه وبالغ شفقته يحنو عليه حنو الأب الشفيق ، ألا يكفيك من كل شهر ثلاثة أيام ؟ ، كلمات ملؤها الحب والتواضع والحنان ، ثم لا يستنكف إذ يعارضه صاحبه المرة تلو المرة ، معارضه الطفل المدلل حين يطمع فى المزيد من الخير ، والبحبوحة فى الأعطيات ، « قلت : يارسول الله » أى لا يكفينى ما ذكرت وألتمس المزيد ، ويزيد رسول الله ﷺ المرة تلو المره ويطمع عبد الله فى المزيد فى كل مره .

هكذا كان رسول الله ﷺ المثل الأرفع والقدوة الأعظم للداعية العالم الرّحيم المتواضع الحانى ، الذى تهوى إليه أفئدة الناس لا يعدلون به أهلاً أو وطناً أو مالاً أو ولداً بل ولا أنفسهم .

وهكذا كان الرجال الذين رباهم رسول الله ﷺ ، أتقياء أوفياء عاملين مجدين فى السير إلى الله تبارك وتعالى ، فكان أحدهم أمة راشدة كل ما فيها خيّر وعظيم .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون : ١٠ ، ١١] .

المبحث الثالث
[فقام النبي ﷺ يناجيه]

فخرت كل فخار غير مشترك ... وجُزت كل مقام غير مُزْدَحَمِ
وجل مقدار ما وُليت من رتب ... وعز إدراك ما أوليت من نعم[(١)]

وأى فخار فوق إمامة الأنبياء ؟ .

وأى مقام بعد سدرة المنتهى ؟ .

وأى رتبة فوق قاب قوسين أو أدنى ؟ .

وأى نعم بعد الشفاعة يوم لا شفيع ؟ .

إنه خير الأولين والآخرين، ورحمة الله للعالمين ﷺ ، الذى هو دائم الحنو ، فياض العطف ، واسع الصفح ، خفيض الجناح للمؤمنين ، دائم القيام على حوائجهم المعنوية والمادية ، وها هو غُصْنُ ندىً يتهادى فيضاً نوارنياً ، يغسل عن القلب ما قد يعلق به من شوائب الكبر وغبار الخيلاء، فإذا هو متدفق الإيمان ، متلألئ اليقين ، شفاف الرؤية .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : « أقيمت صلاة العشاء ، فقال رجل : لى حاجة ، فقام النبى ﷺ يناجيه حتى نام القوم أو بعض القوم ثم صلوا »[(٢)] .

لقاء الأرض بالسماء ، ملكوت الله بلا حجب ولا حُجّاب ، جلال الخوف وجمال الرجاء ، إرتقاء الروح إلى حيث لا رُقيّ بعده ، صفاء النفس إلى أجمل ما يكون الصفاء ، نورانية القلب وانضباط الجوارح ، إنها الصلاة ، قرة

---

(١) البرده للبوصيرى .

(٢) صحيح مسلم برقم (١١٢٦) .

عين رسول الله ﷺ ، واحة روحه وبهجة محبته وراحة نفسه ، عبير الجنة يغسل أحزان قلبه ، قيام قانت ، مناجاة ودعاء ، ملاذ وجوار وتجديد عهد العبودية الخالصة للإله الحق .

وسط هذا الجلال الرائع يطلب الرجل إلى رسول الله ﷺ حاجة ؟ ، وما يُلْجِئ رجل يعلم مكانة الصلاة من الشريعة ، وموقعها من نفس رسول الله ﷺ إلى أن ينتزعه من تلك الروحانيات المشرقة ، ليبثّه حاجته ؟ .

لابد أن حاجة الرجل ملحة عاجلة بدرجة لا تحتمل التأخير ، أو هكذا كانت على الأقل من وجهة نظر صاحبها .

أدرك رسول الله ﷺ ما يعتمل في نفس الرجل ، فلم ينهره إذ تجرأ على وقت الصلاة ولم يسفه تصرّفه ، أو يتجاهله إذ لم يتخير الوقت المناسب بل لم يؤجل حاجته حتى تقضى الصلاة ، إنما أقبل عليه ببشاشة وجهه ، وسماحة نفسه ، وحنو قلبه ، وتواضع عظمته ، فقام يناجيه وقت طويل طويل مع ما لوقت رسول الله ﷺ من قيمة لا تدانيها قيمة الوقت لدى أى عظيم من عظماء الأرض .

إنه التواضع الجمّ ، والخُلق السامي النبيل ، والإخلاص في الدعوة ، وبذل كل ما يملك في سبيل الرسالة الخالدة ، وتلك المقومات في شخص رسول الله ﷺ .

وفى أخلاقه الكريمة سيما التواضع ، هى التى أدخلت اليقين على قلب عدىّ بن حاتم رضي الله عنه بصدق نبوته ﷺ وحقيقة رسالته إذ وجدها فيه صفة أصيلة لا تجتمع بذلك الصفاء وتلك الرفعة المتناهية إلا فى أخلاق نبى كريم ، يقول الأستاذ / سعيد حوى نقلاً عن « كتاب بطل الأبطال » فى هذا المضمار :

« صفة بينه لبطل الأبطال ﷺ ، كانت ولا تزال على مر الأجيال بادية واضحة فى طبعه الكريم تلك هى : التياسر والتواضع ، فبها كان محمد ﷺ صورة صادقة لكرامة الإنسان يؤتاها فى صميم نفسه ، ولا يصطنعها مما يحيط به من مظاهر خادعة متكلفة ، كان محمد التياسر نفسه ، يتمثل فى الرجل الكامل ، وينبعث فى أعماق قلبه فَيُبَدِّد ما يتجمع حوله من زخرف السيادة والملك ، وما يتبعهما من الرياء والزينه ، وما يخدع به الناس من قول أو فعل ، كان محمد ﷺ قريباً سهلاً هيناً ، يلقى أبعد الناس وأقربهم ، وأصحابه وأعداءه ، وأهل بيته ووفود الملوك ، بلا تصنع ولا تكلف ، بل بالحق سافراً ، فكانت أعماله تصدر طبيعيه ، كل منها يدل على خلقه كما تدل الصورة على صاحبها ، واسمعوا إلى عدي بن حاتم رضي الله عنه يقول وقد كان يظن أنه سيلقى ملكاً فى المدينة :

دخلت على محمد ﷺ وهو فى المسجد ، فسلمت فقال : من الرجل ؟ فقلت : عديّ بن حاتم ، فقام وانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته موقفاً طويلاً تكلمه فى حاجتها ، قال فقلت : والله ما هذا بملك ، قال : ثم مضى بى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بى بيته تناول وسادة من أدم حشوها ليف فقذفها إليّ فقال : أجلس على هذه ، قال قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ على الأرض ، قال : قلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك ... هذه طبيعة محمد ﷺ ، لا طلاء عليها ، يأتيه عدي وقد وقع بعض أهله قبل ذلك أسرى بجيوشه ، يأتيه مغلوباً فيجلسه على وسادة ويجلس هو على الأرض » [1] .

---

(١) الرسول ﷺ ، سعيد حوّى .

أنها التربية العملية الحية للصحابة الكرام رضى الله عنهم أجمعين ، وللأمة من بعدهم والدعوة النبوية الكريمة للتواضع وبذل الوقت والجهد والمال والنصيحة للأمة والسعى فى حوائج الناس مهما كلفهم ذلك ، وكفى بالمتسابقين فى هذا الميدان مكرمة أن أسوتهم رسول الله ﷺ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ [الأحزاب : ٢١] .



المبحث الرابع
[يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها]

القائد الأوحد ، والإمام الأعظم ، منقذ البشرية ، وربان سفينتها التى تعصف بها أمواج الجاهلية والشرك والعصبية والوثنية ، وكل أنواع الرزائل والبلايا ، فيبدلها قيم عليا ، وفضائل مثلى ، ليصل بها شاطئ الإيمان والتوحيد والأمان ، ويرسم الطريق المستقيم ، والنهج القويم ، فيبحر العالم من بعده فى بحر من النور ، هادئ الموج ، عذب المذاق ، حلو النسيم يُرى دره ولآلئه من صفحة مائة ، وتقف على أسرار أعماقه من روعة صفائه ، ذلك القائد المثال محمد رسول الله ﷺ أمير الأنبياء وإمامهم ، وسل الأقصى الجريح يُنبك الخبر .

أسرى بك الله ليلاً إذ ملائكه ... والرسل فى المسجد الأقصى على قدم
لما خطرت به التفوا بسيدهم ... كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم
صلى وراءك منهم كل ذى خطر ... ومن يفز بحبيب الله يأتمم[(١)]

هذا القائد العظيم والإمام الجليل الكريم لا يستنكف أن يأتَمّ فى صلاته بأحد أفراد سفينته ، وها هو المشهد حى قائم بيننا يبثنا شيئاً من تواضع عظيم العظماء ﷺ ، قال المغيرة بن شعبه رضي الله عنه :

« ... فأقبلت معه – أى رسول الله ﷺ – حتى نجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف ، فصلى لهم فأدرك رسولا لله ﷺ إحدى الركعتين ، فصلى مع الناس الركعة الأخرة ، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتم صلاته فأفزع ذلك المسلمين فأكثروا من التسبيح ، فلما قضى النبى ﷺ

(١) شوقى .

صلاته أقبل عليهم ثم قال : أحسنتم أو قال : أصبتم يَغْبطهم أن صلوا الصلاة في وقتها » [(١)] .

فزع الصحابة رضي الله عنهم حين رأوا رسولهم وقائدهم وإمامهم ، يصلي من خلفهم ، يؤمه أحدهم ! وحق لهم أن يفزعوا ، وحق لهم أن يخافوا ، غضبة السماء لرسول السماء فما كان أبداً تنبغي المؤخرة له ، ماكان مكانه أبداً الصف الأخير ، ما كان لأحد قط أن يؤمّه وقد نهوا أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته ﷺ ، فقد قال عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) ﴾ [الحجرات : ٢] .

لذلك أكثروا من التسبيح فرقاً مما حدث ، وإشفاقاً مما يمكن أن يحدث ، لكنه ﷺ أتم صلاته ، ثم أقبل عليهم بالبشاشة والرضا والحب والتواضع ، إذ أحسّ خوفهم واستقرأ ما يعتمل بفكرهم فهدأ من روعهم وأعاد السكنية إلى قلوبهم ، إذ بادرهم بقوله « أحسنتم » ، فأخرجهم من مظنة الإساءة إلى طمأنينة الإحسان ومن جوف العقوبة إلى فرحة المثوبة ، فأدخل السرور على قلوبهم وأقرهم على تعجيل الصلاة إذ تأخر هو ، بل حسّنه لهم ، وعلمهم كيفية صلاة المسبوق وكيف يتم صلاته .

أذهب رسول الله ﷺ فزع صحابته رضي الله عنهم وأعطاهم الثقة بأنفسهم إذ حسن اجتهادهم ، وبثهم فضيلة التواضع بثاً عملياً له أبعد الأثر في حياتهم وحياة من بعدهم ، ألا ليت الأئمة يأتمون بتواضعه والدعاة يهتدون بهديه العظيم ﷺ ، فإن الإهتداء بهديه واقتفاء أثره ، والتخلق بأخلاقه العظيمة

---

(١) صحيح مسلم ، باب الصلاة .

وتواضعه الجمّ ، يعتبر سياجاً يقى المؤمنين عامة ، وأهل العلم والدعاة إلى الله خاصة آفة الكبر - التى هى من أبشع الآفات - فلا يرى الإنسان لنفسه على أخيه فضل ولا يرى أنه قد وصل إلى الكمال مهما أوتى من علم وفضل .

« أما إذا اعتقد أنه يستحق تعظيم الناس ، أو أن له منزلة كريمة عند الله بسبب الصفات الحميدة التى اتصف بها كان ذلك عُجباً .

إن إعجاب الإنسان بنفسه ، والنظر إليها بعين الكمال ، والفخر والتطاول على الناس بالعلم أو الصلاح أو الجاه أو المال خلق ذميم ، يجعل صاحبه ممتنعاً عن قبول الإصلاح من جهة ، ويزرع العداوة والبغضاء بينه وبين الناس من جهة أخرى ، وهذا العجب من أخلاق الجبابرة ، فقد تطاول فرعون على موسى - على نبينا وعليه السلام - وحجبه ملكه عن أن يستعمل عقله ويلبى دعوة الله التى عرضت عليه .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) ﴾ [الزخرف : ٥١ : ٥٣] .

وهذا الخلق هو الذى حال بين قارون وبين استجابته للحق .

إنه منطق السفهاء البله المغررين ، الذين لا يستيقظون من غطرستهم إلا بأخذة الله العزيز المتعال ، لهذا فقد حذر رسول الله ﷺ من هذا الخلق الذميم فقال :

« بينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه ، مرجل رأسه ، يختال فى مشيته ، إذ خسف الله به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » . رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

وقال : لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ما أصابهم » ، رواه الترمذى عن مسلمة بن الأكوع وقال : حسن صحيح .

أى أن الرجل لا يزال تعجبه نفسه فيعتقدها عظيمة مرتفعة المقدار على الناس حتى يندرج فى عداد الجبارين فينزل به من العذاب ما نزل بهم »[1] .

نعوذ بالله من الكِبر والعجب ونسأله تعالى أن يخلقنا بخلق نبيه الكريم ﷺ .

---

(١) دعوة الإسلام ، سيد سابق .

المبحث الخامس
[فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم]

إن منهج رسول الله ﷺ في تربية المسلمين بحر عذب لا يغيض أبداً ، فإنه إذ يصب في قلوب الأمة وعقولها ، فنبعه الصافي خُلق رسول الله ﷺ ، وخلوده مستمد من خلود دعوة الإسلام التي كتب الله تبارك وتعالى لها البقاء حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وحياة رسول الله ﷺ كلها منهاج لدعوته ، فكلامه منهج لكيفية الكلام ، وسكوته منهج للسكوت متى ولماذا ؟ وغضبه منهج للغضب متى وكيف ، حتى حركاته ، وسكناته ، والتفاتاته ، وإشاراته كلها كانت ترسم منهاجية دعوته المباركة ، أما توجيهاته العملية فحدث عنها ولا حرج، إذ يغرس من خلالها في نفوس أصحابه كل فضيلة فينبت الغرس الطيب ويورق ويثمر في كل قلب حي إلى يوم القيامة ومن دروسه بالغة الروعة بعيدة الأثر في التواضع والإيثار ما حمله لنا أبو قتادة رضي الله عنه باقة ود وتواضع وإيثار من كف رسول الله ﷺ الفياضة بكل خير « فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم = أي الصحابة – حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ فقال : اشرب ، فقلت: لا أشرب حتى تشرب يارسول الله، فقال : **إن ساقي القوم آخرهم شرباً ، فشربت وشرب رسول الله ﷺ** »[1] .

من القائم على خدمة القوم يطفئ ظمأ حلوقهم ، ويروي نبت قلوبهم ، إنه رسول الله ﷺ إذ جعل يصب وأبو قتادة رضي الله عنه يسقيهم .

أية عظمة هذه ؟ ، أية رفعة تلك ؟ ، أي منهاج دعوة هذا ؟ ، قام رسول

---

(١) صحيح مسلم (٣١١ (٦٨١) مساجد .

الله ﷺ على خدمة أصحابه وهم الأحوج أن يشرفوا بخدمته ، إذ فيها رفعة قدرهم وسمو منزلتهم ، لكنه ﷺ أصر أن يسقيهم الماء المحلى بشهد تواضعه المصفى بفيض حنانه ورحمته ، فأروى به قلوبهم وزكى به عقولهم وطهر به نفوسهم فجرى الإيمان واليقين مع الماء فى عروقهم .

كان ﷺ يخدم أصحابه الكرام وهو الأكرم والأرفع والأجل ، قمة مواضعه ﷺ ، اعتلى بتواضعه عرش قلوبهم ، وكان بين الجفن نور عيونهم ، وكان من القلب نبض حياتهم – بل كان لهم لمعنى الحياة حياة .

ارتوى القوم ولم يبق غير رسول الله ﷺ وصاحبه الذى يدير القدح ليشرب القوم ، فقال له رسول الله ﷺ اشرب ، لكن كيف لرجل تأدب بآداب القرآن الكريم واغتذى بحب الرسول ﷺ حتى خلص الحب إلى عظمه وعصبه ؟ ، كيف له أن يقدم نفسه فى الشرب على رسول الله ﷺ ، وهو الذى علمه أن ينزل الناس منازلهم ؟ « لا أشرب يارسول الله حتى تشرب أنت » ، كيف وأنت الذى علمتنا أن نعرف لعالمنا قدره فما بالنا بك أنت أعظم عظيم وخير عالم ومعلم .

خلق طبيعى ممن كان مؤدبه ومعلمه رسول الله ﷺ الذى رباه على عينه فجاءت الثمرة طيبة ذكية غير أن رسول الله ﷺ أهدى إليه مزيداً من الأدب وفيضاً من العلم من نهر العطاء المحمدى الزاخر الفياض .

إن ساقى القوم آخرهم ، قاعدة أخلاقية رائعة ليس محلها ذلك الموقف فقط إنما هى راسخة رسوخ الآداب النبوية الرفيعة ، تربى الأمة على إنكار الذات ، وإيثار المؤمنين بالخبر والبذل ، والتفانى فى قضاء حوائج المسلمين ، ولم لا وهو المعلم والمربى الأمين .

الذى « حدد ﷺ مهمته الأساسية بقوله : « إنما بعثت معلماً » والقرآن

الكريم ذكر هذه المهمة الأساسية لرسول الله ﷺ بصراحة فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : ٢] .

فقد أحصت هذه الآية من مهمات الرسول ﷺ التعليم والتربية ، تعليم الكتاب والحكمة ، وتربية الأنفس عليهما ، وكان الجانب الأعظم من حياة رسول الله ﷺ مستغرقاً بهذا الجانب إذ أنه الجانب الذى ينبع منه كل خير ولا يستقيم أى جانب من جوانب الحياة سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو عسكرياً أو أخلاقياً إلا به ، ولا يؤتى الإنسان ، ولا تؤتى أمة ولا تؤتى الإنسانية إلا من التفريط فى العلم الصحيح ، والانحراف عنه إما إلى الجهل ، أو إلى ما يضر علمه ولا ينفع .

فالأمة بلا علم يوضح لها جوانب سلوكها ، وبلا تربية يعرف كل فرد من أفرادها واجبه ، تصبح أمة فوضوية ، تصرفاتها غير متوقعة وغير منضبطه ، ولكل فرد من أفرادها سلوك يخالف سلوك الآخر ، وعادات وتصورات تختلف فلا تكاد أمة تفلح بهذا ولا فرد .

والظاهرة التى نجدها فى تاريخ محمد ﷺ ، أن السيد الرسول بدأ تشكيل أمة جديدة ، لها كل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية ، بحيث ينبتّ الفرد فيها عن صلته بأى عالم غير عالم هذه الأمة من حيث العقيدة والسلوك ، فصهر أفراد هذه الأمة انصهاراً تاماً ، ثم أطلق هذه الأمة فى اتجاه وحيد ، حدد فيه لكل فرد مهمته ، ورباه على أدائها ، وحدد للجميع المهمة الكبرى ، ورسم لهم الطريق ، موضحاً لهم كل شيء فى كل جانب ، وقادهم فى هذا الطريق فترة ، ثم تركهم ماضياً إلى ربه فانطلقوا من بعده ، لا غيروا ولا بدلوا ، فكان ما كان وما لا زال مما نشاهده من

آثار المسلم العظيم الذى كلما تعثر ، أخذت بيده تعاليم محمد ﷺ وتربيته ، فأنقذته وقذفت به إلى الأمام » [(١)] .

فكان مؤمن الصدق اليوم – وإن عزّ وندر – هو مؤمن الصدق بالأمس ، هو المؤمن الصادق فى كل زمان ومكان الذى تربى على كل الفضائل النبويه السامية ، والتى هذبته كما هذبت صحابة رسول الله ﷺ وخلّقتهم بالإيثار وإخلاص المحبة ببركة « إن ساقى القوم آخرهم » فاستحقوا بها شهادة الله عز وجل لهم وتكريمه إياهم بقوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑨ ﴾ [الحشر : ٩] .

(١) الرسول ﷺ . أ . سعيد حوى .

المبحث السادس
[وكفى بين كفيه]

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

ما أضيع الأمة الإنسانية عامة ، والأمة العربية بوجه الخصوص ، لو لم تتداركها عناية الله عز وجل بإرسال محمد ﷺ ليعلمهم الكتاب والحكمة تزكية لنفوسهم وتصحيحاً لمنهج حياتهم .

يقول الشيخ / سيد قطب - رحمه الله - فى تفسير تلك الآية الكريمة ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾ :

« وهى تشى بالنقلة من حال إلى حالٍ ومن وضع إلى وضع ، ومن عهد إلى عهد ، فتشعر الأمة بما وراء هذه النقلة من قدر الله الذى يريد بهذه الأمة أمراً ضخماً فى تاريخ الأرض وفى تاريخ البشر ، الذى يعدها لهذا الأمر الضخم بإرسال الرسول ﷺ ... إنها المنة العظمى أن يبعث الله فيهم رسولاً ، وأن يكون هذا الرسول من أنفسهم ، إن العناية من الله الجليل .. هى المنّة التى لا تنبثق إلا من فيض الكرم الإلهى ... وتتضاعف المنّة بأن يكون هذا الرسول من أنفسهم ، لم يقل منهم ، فإن للتعبير القرآنى ظلالاً عميقة الإيحاد والدلالة ... إن الصله بين المؤمنين والرسول هى صلة النفس بالنفس ... فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى ، إنما هى أعمق من ذلك وأرقى ، ثم إنهم بالإيمان يرتفعون إلى

هذه الصلة بالرسول ، ويصلون إلى هذا الأفق من الكرامة على الله ، فالمنّة مضاعفة بإرسال الرسول ، وفى وصل أنفسهم بنفس الرسول ، ونفس الرسول بأنفسهم على هذا النحو الحبيب ، ثم تتجلى هذه المنّة الطويلة فى آثارها العملية فى نفوسهم وحياتهم وتاريخهم الإنسانى » (١) .

وهذا الرسول إنما هو محمد ﷺ المعلم الفذ الذى حرص على تلاميذه أشد الحرص وبذل لهم غاية الجهد ، فما ترك نصيحة فى الله إلا نصحهم بها ، ولا موعظة بليغة تذكرهم ، أو ترغبهم أو ترهبهم إلا وعظهم بها ولا موقفاً صغيراً أو كبيراً إلا ناقش وأوضح وأرشد ولا شيئاً من خيرى الدنيا والآخرة إلا حشده لهم .

وكان ﷺ يتخولهم بالموعظة مخافة السآمة عليهم ، ويتواضع لهم غاية التواضع حتى يجلس الرجل بين يديه محتضناً كفه بين كفيه الشريفتين ليبثه الحب والتواضع مع العلم والعقيدة والإيمان ، وهاك الصورة الرائعة التى رسمها لنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذ يقول :

« علمنى رسول الله ﷺ وكفى بين كفيه ، التشهد كما يعلمنى السورة من القرآن » (٢) .

إن التواصل الفكرى والروحى بين المعلم والمتعلم من أهم أسباب نجاح العملية التعليمية ، كذلك تلاشى الحواجز النفسية والمكانية إذ كلما كان المعلم قريباً من نفس المتعلم كان العلم أثبت وأجدى وأعمق ، وكلما كان شخص المعلم قريباً من شخوص المتعلمين ، تمت العملية التعليمية بصوره أيسر وأسرع وأوضح ، لهذا كان رسول الله ﷺ قريباً من أصحابه كل القرب الروحى منه

---

(١) فى ظلال القرآن .

(٢) صحيح مسلم ٥٩ (٢٠٤) التشهد .

والحسّيّ ، بل كان فى السؤدد من قلوبهم كما كانوا منه كذلك .

وها هو ﷺ يبثهم علمه الشريف ومنهجه الربانى وكف أحدهم بين كفيه المباركتين كأب حانٍ حكيم يبث أبناءه حصاد السنين ، عصارة تجاربه وحنكته وحكمته ، فكانوا خير أغصان لأعظم دوحة وأصفى روافد لأعذب نَهْر فأورثهم ميراثاً مباركاً يربُوا مع الزمان لا ينضب أبداً .

ها هو « عبد الله بن مسعود رضي الله عنه راعى الإبل المحتقر المهان فى قريش - فى الجاهلية - الذى ما كان ليعرفه إلا سيده ومن يستخدمه ، هذا الرجل النحيل القصير الحمش الساقين ، ماذا يصبح بعد أن ربته يد النبوة ؟ ، يصبح الرجل الذى يعتبر مؤسس أكبر مدسة فى الفقة الإسلامى ، والتى ينتسب إليها أبو حنيفة النعمان ، يصبح الرجل الذى يقول فيه عمر رضي الله عنه لأهل الكوفة : لقد آثرتكم بعبد الله على نفسى .

إنك عندما تدرس شخصية الإنسان قبل اتصالها برسول الله ﷺ ، وبعد اتصالها تجد أن كل شيء فيها قد تغير ، وتجد كل طاقاتها وملكاتها قد انطلقت فى الطريق الصحيح ، الطاقات الجسمية ، والطاقات العقلية ، والطاقات النفسية ، والطاقات الروحية ، والطاقات الوجدانية ، والمعنوية والأخلاقية .

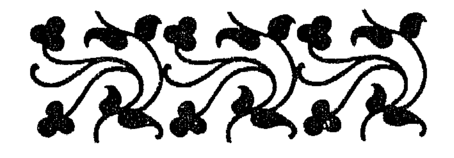
وهذه الطاقات كلها انطلقت فى إطارها الصحيح ، وطريقها المستقيم ، بحيث لا يستطيع إنسان أن يقول إن طاقة ما معطلة عند أصحابه - رضى الله عنهم - أو أنها تعمل عملاً غير صالح »[1] .

ذلك لأن رسول الله ﷺ قد حمل صحابته الكرام فى القلب رجالاً يحملون أمانة علمه وحكمته ، وفى الضمير مصابيح هدىً تنير الدروب وتجلوا

---

(١) الرسول ﷺ ، سعيد حوى .

الضباب ، حتى غدوا بحق عمالقة العلم ، وحاملى مشعله إلى الأمة من بعدهم ، عبر العصور والأجيال ، فكانوا كما وصفهم الله تبارك وتعالى فى كتابه العزيز حيث قال : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح : ٢٩] .



المبحث السابع
[لكني أفقد أخي جليبيب]

ولإن كان رسول الله ﷺ يحمل أصحابه في القلب أملاً وحباً ورجاءً إذ هم أحياء ، فإنه ليحملهم في القلب ألماً وحزناً ، وفي العين دمعاً ملتهباً ، وفي الضمير خلوداً أبدياً – إذ هم موتى – .

وها هم على سواعده الشريفة أجساد نورانية طاهرة ليزفهم إلى جنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين ، في مشهد جليل مهيب ، تتزاحم فيه المشاعر وتعجز الكلمات وتتدفق المعاني فيضاً نورانياً يرسم كل معنىً للتواضع والجلال .

« عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في مغزىً له فأفاء الله عليه فقال لأصحابه : هل تفقدون من أحد ؟ ، قالوا : نعم ، نفقد فلاناً وفلاناً وفلاناً ، ثم قال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نعم ، فلاناً وفلاناً وفلاناً ، ثم قال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : لا ، قال : لكني أفقد جليبيباً فاطلبوه ، فطلب في القتلى فوجدوه إلى جنب سبعة قتلهم ثم قتلوه ، فأتى النبي ﷺ فقال : قتل سبعة ثم قتلوه ، هذا مني وأنا منه ، هذا مني وأنا منه ، قال : فوضعه على ساعديه ليس له إلا ساعدا النبي ﷺ قال : فحفر له ووضع في قبره »[(١)] .

من جليبيب هذا ؟ ، إنه فقير مغمور ، مدفوع بالأبواب ، ذو طمرين باليين ، لا يسمع له إذا قال ، ولا يُشفع إذا شفع ، ولا ينكح إذا خطب ، ولا يؤبه له إن غدا أو راح . هكذا هو في الميزان الجاهلي الذي يزن الناس بثقل

---

(١) صحيح مسلم ١٣١ ، (٢٤٧٢) فضائل جليبيب .

ممتلكاتهم ، وسعة جاههم ، وعمق أنسابهم ، أما في ميزان الله تبارك وتعالى فجليبيب قلب مشع بنور الإيمان ، ولسان طاهر لا يفتر عن الذكر والشكر والتسبيح والتهليل ، وفكر أجهده هم الدعوة وإعلاء كلمة الله ، وجسد طار بجناحي الزهد في الدنيا والرجاء ، فيما عند الله ليقذف ، بنفسه في معامع المعركة ، راغباً غير راهب ، يدحض الباطل ويعلي كلمة الحق في الأرض ، رغم كفر كل كفار عنيد .

ألا رب ذي طمرين أشعث أغبرا ... يدافع بالأبواب إذا ظل مُعسرا
مطيع يخاف الله في كل أمره ... يكاد من الأحزان أن يتفطرا
ولو أقسم يوماً عليه أبرّه ... وكان حرياً أن يُجاب ويُجبرا

جليبيب رضي الله عنه الآن سيف مسلول ، فلق هام سبع جيف قذره ، فكفى الإسلام كفرهم وكيدهم ، وكفى المسلمين شرورهم ثم قتلوه ، قذفهم إلى النار بسيف واحد ، ثم أهدوه إلى الجنة بسبع سيوف ، ليصبح هو ثماني شهداء لا شهيد واحداً ، يتبوء من الجنة حيث يشاء ، جزاء ما قدم للإسلام ، وماذا فوق النفس ليجود بها مقبل غير مدبر

الجود بالمال جود فيه مكرمة ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

بكل تلك المشاعر السامية النبيلة ، افتقد رسول الله ﷺ جليبياً حيث لم يفتقده أحد ، وطلبه حيث لم يطلبه أحد ، وجعله جزءاً منه حيث لم يذكره أحد ، فجعل ساعديه الشريفين له سريراً مباركاً حتى أنزل قبره ، في جوف الثرى ، حيث العيون ترى ، بيد أنه يزفه إلى جنات النعيم ، حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، حيث الحور العين ، واحدة ؟ ، إثنتان ؟ كلا ، إنما إثنتان وسبعون لو أطلت إحداهن بطرف نصيفها على الدنيا لملأتها ضياءً وعبيراً .

وكانت هدية هذا العُرس المبارك من رسول الله تاجاً يتألق في جبين جليبيب إلى غير منتهى « هذا منى وأنا منه » ، ما أرفع المنزلة ، وما أعظم الجائزة ، وما أقيم الهدية .

وهكذا تبوأ جليبيب من رسول الله ﷺ حباً وقرباً حتى غدا كأنه منه ، وهكذا يتبوأ جليبيب رضي الله عنه من قلوبنا مكانة رفيعة بحب رسول الله ﷺ له وتواضعه إياه ، وفوق كل هذا ... مكانته عند الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾ [آل عمران : ١٦٩ : ١٧٠] .

وهكذا تعلمنا نحن معنى التواضع الحق وعلمنا أن قمة منتهاه إلى رسول الله ﷺ أرفع البشر رفعة وأعظمهم عظمه .

هكذا علمنا ﷺ أن التواضع من عظمة النفوس وكمالها ، وأن الكبر والعجب من رعونات نفس تنسى أن ما بها من نعمة فمن الله ، وأن الأمر كله لله ، أما إذا تم العلم فلا كبر ولا عجب لأنه : إذا تم علم الإنسان لم ير لنفسه عملاً أو يعجب به وذلك بأشياء منها : أنه وفق لذلك العمل ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ٧] .

ومنها أنه إذا قيس بالنعم لم يف بمعشار عُشرها .

ومنها أنه إذا لوحضت عظمة المخدوم « أى الله » احتقر كل عمل وتعبد ، هذا إذا سلم من شائبة ، وخلص من غفلة ، فأما والغفلات تحيط به فينبغى أن يغلب الحذر فى ردّه ، ويخاف العتاب على تقصير ، فيشتغل عن النظر إليه ، وتأمل على الفطناء أحوالهم فى ذلك ، فالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، قالوا : ما عبدناك حق عبادتك .

والخليل عليه السلام يقول : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي ﴾ [الشعراء : ٨٢] .

وما أدل بتبصرُّه على النار وتسليمه الولد إلى الذبح ، ورسول الله ﷺ يقول : « **ما منكم من ينجيه عمله** ، قالوا ولا أنت ؟ **قال** : **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته** »(١) .

وعلى الجملة فما تحلى العالم بحلية أجمل ، ولا أرتدى حُلّة أفخر من التواضع ، وما تردى العالم برداء أحقر ، ولا تزييّ بزى أسوأ من الكبر والعجب »(٢) .

وكذلك كل إنسان .

فهل يصل عابد فى تعبده أن يكون مَلَكْ من الملائكة ؟! .

وهل يصل مضح ومجالد فى سبيل دعوته أن يكون الخليل عليه السلام ؟! .

وهل يصل مثاليّ فى أرفع درجات المثالية أن يكون محمد رسول الله ﷺ ؟! لذلك فالتواضع مركب يرجى نفعه فى طريق السير إلى الله عز وجل .



(١) البخارى ، كتاب الرقاق والمرض ، ومسلم فى كتاب المنافقين .
(٢) آفات العلم ، عبد الله محمد بن سعيد رسلان .

المبحث الثامن
[ولا رآني إلا تبسم]

البر شيء هين ، وجه طلق ، وكلام لين .

هكذا هو نعم ، ولكن هل يستطيعه كل إنسان ؟ بالطبع لا ، إذ لا يستطيع طلاقه الوجه إلا سمح الخلق ، رقيق القلب فياض العاطفة ، كريم النفس ، فالوجه الصادق صفحة نهر صافي تعكس ما في الأعماق ، وتشف كل كنوزه فيكون للعين بهجة وللقلب سعادة ، ولا يستطيع لين الكلام إلا ودود العشرة عظيم التواضع رحيم القلب ، ولله در القائل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليل

وهذه سيماء الأفاضل الكرام ، وزينة العلماء الدعاة إلا الله عز وجل وأما إمامهم وقدوتهم فهو رسول الله ﷺ الدائم البشر ، الطلق الوجه ، المشرق المحيا ، ما عرف عنه ﷺ أبداً ذلك العبوس المقيت الذى يظنه الجافين من دواعي الجد والرزانه وكمال الشخصية ، وما هو في حقيقته إلا الغلظة والفظاظة التى تصرف عنهم العقول وتنفر منهم القلوب .

إن رسول الله ﷺ مشرق النفس رقيق القلب ، وضيء الوجه ، فياض المشاعر ، ولهذا فقد انطبعت إشراقته الداخلية على محياه الكريم ، فكان كما وصفه عبد الله بن الحارث بن جزء رضي الله عنه إذ قال :

« **ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ** » [(١)] .

إن البسمة الصافية الصادقة الودود في الوجه الطلق الألوف ، لهي سفير

---

(١) مختصر الشمائل المحمدية .

المحبة ورسول الألفة ، إذ تضفى على صاحبها إشراقاً وتألقاً ، وتجمع عليه القلوب ، وترد الشارد منها رداً جميلاً فتهوى إليه كالفراشات تهوى إلى النور ، لا لتحترق، وإنما لتحيى سعيده هانئة مطمئنة ، وهل بعد حياة القلوب حياة ؟ ، هكذا كان الداعية الأعظم ﷺ ، هيناً ليناً ، طلق الوجه ، بسام الثغر ، ودوداً محباً ، وكفى بتلك المواهب جاذبية للقوب ، ونجاحاً للدعوة .

وها هو غصن رطيب ندى يضمنا بحنان بسماته ويغمرنا بنسيم شذاه فيعطر فينا زهور المعانى .

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : « **ما حجبنى رسول الله ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم ، ولقد شكوت إليه إني لا أثبت على الخيل ، فضرب بيده على صدرى وقال : اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً** » [(١)] .

إن صاحب الدعوة إن أعرض ونأى بجانبه عن الناس كسدت دعوته ، وبارت تجارته ، وكان هو السبب الرئيس للكساد والبوار ، ذلك أن تكبره وتجهمه ينتصب سداً منيعاً بينه وبين الناس، فإذا هم معرضون عن دعوته بداية ، وليس عن جوهر الدعوة أعرضوا ، وإنما عن شخص الداعى الفظّ الغليظ .

« ولو أننا درسنا سيرة محمد رسول الله ﷺ الدراسة اللائقة بها لكان اليوم حيّاً بين أصحابه ، ولوجدنا الصورة التى طبعها على الوجوه بعمله وقوله ، لا تزال واضحة وضوح نفسه العظيمة ، المتحلية بأخلاق لا يُغطيها الطلاء ، ولا يحجبها رياء ، ولا ترى إلا على حالة واحدة فى الليل والنهار ، وفى السر والعلانية ، وفى الشدة والرخاء ، وفى الضعف والقوة ، فى السوق وهو فى شبابه ، وفى الشيخوخة وهو على عَرش النبوة والملك .

---

(١) صحيح البخارى ، باب لا يثبت على الخيل ، كتاب الجهاد والسير .

وكان محمد ﷺ بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع ، لا تبديل ولا تغيير فيها هي النفس التي اتصلت بالسماء ، وعاشت على الأرض دانية إلى الناس ، محببة إليهم في كل أطوار حياته .

كان بطل الأبطال ﷺ المثل الأعلى الذي نحن اليوم أحوج ما نكون إليه في نطاق الأخوة الإسلامية ، لا يرفع من شأن أحدهم غني أو جاه أو حسب أو نسب ، وإنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي ، « **والناس من آدم وآدم من تراب** » [1] .

ليت لدعاة الحق أسوة في رسول الله ﷺ إذاً لبعث فينا المجتمع الفاضل ، كمجتمع الصحابة الكرام ، من جديد ، فإنه ﷺ بكل عظمته التي لا تدانيها عظمة ، ورفعته التي لا تساميها رفعه ، ومسؤلياته التي لا تقاربها أية مسئوليات ، إلا أنه ما اتخذ يوماً بينه وبين النانس حاجباً من البشر ، ولا حاجباً من الكبر والبطر ، ولا حاجباً من التجهم والعبوس ، إنما كان يقابله من أراد وقتما أراد ، وكيفما أراد ، ولأي مدة أراد .



(١) الرسول ﷺ . أ / سعيد حوى ، نقلاً عن كتاب بطل الأبطال .

المبحث التاسع
[فاحتضنه من خلفه]

هكذا كان رسول الله ﷺ محلقاً فى سماء الإنسانية ، مشرعاً جناح مكارم الأخلاق ؛ ليستظل به كل مؤمن رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبه ﷺ نبياً ورسولاً بل ليُظل الإنسانية جمعاء ، ومن أعاجيب ألوان تواضعه وأرق أنسامها زهرة فى قلب أنس رضي الله عنه فاضت على لسانه نسيماً عبقاً ، أنعش القلوب وعطر جوانحها .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً ، وكان يهدى النبى ﷺ هدية من البادية ، فيجهزه النبى ﷺ إذا أراد أن يخرج ، فقال النبى ﷺ : « إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه » ، وكان النبى ﷺ يحبه وكان رجلاً دميماً فأتاه النبى ﷺ يوماً وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره ، فقال : من هذا ؟ أرسلنى فالتفت فعرف النبى ﷺ فجعل لا يألوه ما ألصق ظهره بصدر رسول الله ﷺ حين عرفه فجعل النبى ﷺ يقول : « من يشترى هذا العبد ؟ » فقال يا رسول الله : إذاً والله تجدنى كاسداً ، فقال النبى ﷺ : « لكنك عند الله لست بكاسد » أو قال : « أنت عند الله غال » (١) .

إنها الروعة فى أسمى معانيها ، يتردد سناها بين القلب والعقل ، فيقصر عنها كل تعبير ، وتعجز كل الكلمات ، ولا أجد لها إلا تلك البلاغة الجامعة ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم	واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف	وانسب إلى قدره ما شئت من عظَم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر	وأنه خير خلق الله كلهم (٢)

---

(١) الشمائل المحمدية ، صحيح الإسناد .

(٢) صاحب البردة

الفصل الثاني

[تواضعه ﷺ للنساء]

المبحث الأول : فى خدمة أهله .

المبحث الثانى : فيدنو من إحداهن .

المبحث الثالث : والله ما أهجر إلا اسمك .

المبحث الرابع : يتكئ فى حجرى ... يقرأ القرآن .

المبحث الخامس : يا عائشة ناولينى الثوب .

المبحث السادس : فدعانى فاضطجعت معه فى الخميلة .

المبحث السابع : يحوى لها وراءه بعباءة .

المبحث الثامن : يبتدرن الحجاب .

المبحث الأول
[في خدمة أهله]

كان رسول الله ﷺ مع الرجال مربياً حكيماً ، سلك كل دروب الحكمة ليصوغ أعظم جيل عرفته البشرية على مر العصور ، وتعاقب الأزمان ، ولم تكن النساء بمنأً عن تلك التربية الرائعة ، ولم تكنّ يوماً أقل حظاً من الرجل من ذلك العطاء الفياض ، فقد كفل لها المنهج الإسلامى المنصف فوق ما تصبوا إليه من حقوق ، ورفعها إلى حيث أردها الله تبارك وتعالى .

واحة خصيبة تثمر كل أنواع الفضائل والمثل ، فكان لابد أن يكون الغراس طيباً ، والعناية فائقة لتكون الثمار عظماء ، تبنى بهم الأمة مجدها وتشيد خلودها ، ومن هنا كان لابد أن يكلأها رسول الله ﷺ برعايته ، ويحوطها بحدبه وعنايته ، ويرويها بحسن خلقه وعبير رقته ، لهذا فقد تواضع رسول الله ﷺ للنساء وترفق بهن ، فأحيا كرامتهن الذبيحة على أعتاب القهر والامتهان ، وأعاد البهجة لحياتهن ، والثقة بقدراتهن ، ومنحهن حق المشاركة الاجتماعية المشروعة فى قضايا الأمة ، وأقر لهن حق الوجود الإنسانى الذى طالما حرمنهن منه المجتمع المجحف ، لصلف رجاله واحتكارهم لكل الحقوق والميزات دونهن ، ونظرتهم لهن نظرة دونيه ، حتى ليلقى الرجل من ورثة المتوفى على زوجه ثوبه ، فتصبح إرثاً طبيعياً له مثلها مثل أى أثاث أو متاع ، هكذا دون اختيار منها أو حتى مجرد حق الإعتراض .

لهذا ولغيره الكثير الذى لا يسعه هذا المقام ، كان حنوه ﷺ على المرأة ورحمته بها وتواضعه لها ودفْع القهر الجاثم على حياتها معظم فترات التاريخ الإنسانى ، فضمد فيها جراحات الماضى الأليم ، وغسل عنها هموم القهر والظلم والعدوان ، وعالج فيها التشوهات النفسية التراكمية ، التى ألحقتها بها

النظرة الاجتماعية القاتلة فنشطت من عقال ، وانطلقت قوة إيجابية فاعله لا يُستهان بها فهى الأم المؤمنة الواعية الصابره ، وهى المربية المؤتمنه ، وهى الداعية الحصيفة المخلصة ، وهى المجاهدة بنفسها ومالها وزوجها وبنيها فى ميادين الجهاد - الحربى منه والسلمى - وحملت بكل اقتدار أمانة العلم والعمل به ، إلى جانب أمانة الأمومة والتربية ، فكانت عظيمة أنجبت العظماء النجباء وستظل هكذا دائماً طالما استمسكت بعزها ورفعتها وأسباب قوتها كمؤمنة صادقة الإيمان ، وإلا فستظل تلهث دائماً خلف السراب .

ولكى نعرف إلى أى مدى من حسن الخلق ورقة المعاملة كان نصيب المرأة المسلمة من الشريعة المتمثلة فى أرفع مستوياتها - وهو رسول الله ﷺ - فخير البدء من بيت النبوة الطاهر الشريف لنرى ملمحاً سريعاً من تلك الحياة الرائعة يشع رقه وتواضعاً .

عن الأسود قال : سألت عائشة - رضى الله عنها - ما كان النبى ﷺ يصنع فى بيته ؟ ، قالت : « **كان يكون فى مهنة أهله - تعنى فى خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة** » [1] .

كان رسول الله ﷺ يربى الأمة تربية مركبة ، إذ عليه أن يهدم الموروثات العقدية ، والخلقية ، والنفسية ، والاجتماعية الجاهلية التى حفرت فى الكيان البشرى ورسخت فيه رسوخ تقادمها فيه ، والتى تتعارض مع المنهج الربانى والخلق الإسلامى - وفى ذلك جهد أى جهد ومعاناة أية معاناة - ثم عليه أن يقوم ببناء الشخصية الإسلامية الصحيحة العقيدة ، الراقية الأخلاق ، التى يجب أن تكون عليها أمة التوحيد .

---

(١) البخارى ، باب من كان فى حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج ، كتاب الأذان .

وبين الهدم والبناء ، قضى رسول الله ﷺ حياته المباركة دون كَلَلٍ أو ملل أو فتور ، وفى غمار تلك المسئوليات الجسام ، لم ينس حق بيته .

إذ كيف تقوم ببناء أمته من يهدم أسرته ؟! .

كيف يقوم بأعباء أمته من يتنصل من أعباء بيته ؟ ، إن أحق الناس بدعوة الداعية ، وتربية المربى هم أهله وخاصته ، إذ لا يمكن لمنهجه أن يكون واقعى التطبيق ، متوقع النجاح ، إلا أن يكون أهل بيته هم أول ثمار ذلك المنهج ، ودليل صحته ، فيصحبون هم دعائم نجاحه .

حينئذ تنطلق الدعوة من بيت الداعية إلى المجتمع ، لا بداعية واحد فقط ، وإنما ببيت من الدعاة الجادين المخلصين .

من هذا المنطلق كان رسول الله ﷺ فى بيته خير زوج ، إذ علم أهله وأدبهن أروع الأدب ، ورباهن على عينه ، فكن عالمات عابدات خيرات ، حملن للأمة كثيراً من العلم والفقه ، وفوق هذا فقد كان ﷺ فى خدمتهن ، تخفيفاً من أعبائهن ، وتطيباً لخاطرهن ، وحرصاً على المشاركة الفعليه والوجدانية لهن .

إن شئون البيت لا تقلق الزوجة المخلصة المحتسبه – وإن أجهدتها – إذ هى من صميم مسئولياتها ، غير أن الزوجة إن امتدت إليها يد العون من الزوج الحنون ، ولو بالقليل ، ترك ذلك فى نفسها جميل الأثر ، وأدام شعورها بالإمتنان والتقدير له ، وعمّق إحساسها بتقديره لها ، وإحساسه بها كإنسانة رقيقة الوجدان ، فى حاجة إلى الحنان الدافىء ، فلا تقف الزوجة عند المعنى المادى لمساعدة الزوج لها إنما يفيض على وجدانها ثماراً نضرة تروى مشاعرها وتملأ فراغها النفس وتحقق رغبتها الملحة فى وجوده الدائم معها إذ تراه فى كل ما حولها وتتنسم أنفاسه تعطر أجواءها ، فيظل دائماً فى ناظريها إنساناً رائع

الإنسانية ، وفى وجدانها حبيباً دائم الإستواء على عرش قلبها وفى حسها قوّاماً لا تستقيم حياتها إلا به ، فلا تكون الثمرة إلا البيت الهادئ ، والزوجة المطيعة المحبة ، والأم المربية المبدعة ، والأبناء البررة الأفذاذ .

كانت خدمة رسول الله ﷺ لأهله تغرس تلك المعانى الرائعة فى نفوسهن ، بَلْ وفى نفوس نساء الأمة كلهن ، كما كانت لمن بعده سُنة حية رائعة ، تصبح بركة وخيراً لمن استن بها ، وحجة على من يتوهم أن كل مسئولياته تجاه بيته إشباع حاجاتهم المادية ، معتبراً الحاجات الوجدانية والنفسية هراء لا طائل تحته فيظل دائماً بيته منه خواء – وإن وجد فيه – وتظل الزوجة المسكينة تصارع إحساس الوحدة القاتل ، وتظل دائمة البحث عمّن يملأ فراغها النفسىّ ، أو يُرَمِّم صدعها الوجدانى ، فلا تجد على أحسن تقدير إلا المتصدعات التائهات مثلها ، فلا تزدنها إلا فراغاً فوق فراغها ، وضياعاً فوق ضياعها ، وتكون الثمرة حنظله شوهاء ، فالأب دائم الهروب من مسئولياته الداخلية ، والأم تائهة تبحث عن وجدانها المحطم على صخرة جفاء الرجل وانشغاله المزعوم ، والأبناء ممزقون أيتام قد تحقق فيهم قول أمير الشعراء :

إن اليتيم هو الذى تلقى له . أما تخلت أو أبا مشغولاً [١]

نُعيذ بالله العظيم كل بيوت المسلمين من هذا البلاء المهين .

« وإذن فقيام المرأة بشأن البيت ليس عاراً يترفع عنه الرجل ، بل هو كمال يتطاول إليه الرجل ولا يأنف ، وكيف يأنف المسلم وقد فعله رسول الله ﷺ » [٢] .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع

---

(١) شوقى .

(٢) الرسول ﷺ . أ / سعيد حوى .

المبحث الثانى

[فيدنو من إحداهن]

بهذا الذكاء الفريد وتلك المشاعر الحانية الواعية النبيلة كان رسول الله ﷺ يحسن إلى نسائه فيغمرهن بفيض من طيب المشاعر ورقة الوجدان ، وخير من يبدع رسم ملامح ذلك الإحسان الرقيق ، المحبة الرقيقة الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ .

وهاك من ريشتها الندية زهرة متألقة على ثغر بيت النبوة الهانئ السعيد ، «عن عائشة – رضى الله عنها – **كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن** »(١) .

إن المتأمل لحياة رسول الله ﷺ ليجدها عجباً عجاباً ، ليس لكونها غريبة فى ذاتها ، ولكن لبعد الناس عن جوهرها وتقصيرهم فى الغوض فيها وتكاسلهم فى الإقتداء بها .

إنه ﷺ فى مجال الدعوة وقد وهب نفسه لها ، حتى ليظن الدارس لشخصيته ﷺ كداعية ، أنه رجل بلا بيت ولا متعلقات دنيوية ولا متطلبات جسدية أو نفسية ولا علائق اجتماعية .

إذ كيف لمن لديه تلك المسئوليات ، وعليه هذه المتطلبات ، أن يقوم بواجب الدعوة على ذلك الوجه المثالى الرائع .

ثم الدارس لشخصيته ﷺ كعابد ، لا يشك لحظة أن صلته بالخالق جل ثناؤه لم تترك لديه مجال للتواصل أو الصلة بأى مخلوق ، والباحث فى حياته

---

(١) صحيح البخارى ، باب « دخول الرجل على نسائه فى اليوم » ، كتاب النكاح .

ﷺ كأب وزوج ليحس أنه ﷺ أوقف حياته المباركة على ذلك الجانب فقط لكثرة ما له فيه من عطاء وبذل وإيثار ، وهكذا فى كل مجالات حياته المباركة المثمرة غير أن الدارس لشخصيته المتكاملة ليجده ﷺ قمة مطلقة فى كل جانب من جوانبها .

وها هو ﷺ ينصرف كل يوم من صلاة العصر حيث أدى حق الله سبحانه وتعالى إلى بيوت زوجاته الطاهرات ليؤدى حقوقهن .

وفى أدائه لحق الله تبارك وتعالى عبادة أى عباده ، وفى أدائه حقوق أهله فهو أيضاً فى عبادة .

فيا لسعادة قلب زكّى قد وعى كل دروب العبادة .

يدخل رسول الله ﷺ على زوجاته دخولاً حانياً ودوداً ، ودخول الزوج الصالح على زوجه المحبة يملأ البيت سعادة ويملأ القلب نشوة ويملأ النفس طمأنينة ورضا ، ويفيض على البيت حياة أى حياة ! .

وماذا بعد دخول البيت ؟ ، إن ما بعده أعظم روعه منه ، إذ يدنو من الزوجة دنو مودة وحنان ورحمة ... ما أحوج الزوجه إلى ذلك الدنو الحانى الذى تلقى بين شطآنه أفراحها وأطراحها .

إن الزوجة تدخر من لحظات الدنو الرائعة تلك ، زاداً لساعات غياب الزوج الودود ، فإذا هو الحاضر دائماً ، المتواجد أبداً ، وجود مودته ورحمته ، إن تخفف النفس من أعبائها أولاً بأول ، من كل ما يثقلها ويؤرقها ، يجعل الإنسان صحيحاً معافاً من أى ضغوط نفسية ، أو انفعالات غير طبيعية ، قد يؤدى تراكمها إلى أمراض نفسية ، وانهيارات عصبية تحطم فى طريقها البيت ، وتهدم المجتمع .

من هذا المنطلق كانت ضرورة الدنو النفسى والروحى والفكرى بين

الزوجين ، لإتاحة المشاركة والمناقشة والتفاهم ، وإزاحة كل ما من شأنه تعكير صفو الحياة .

وزوج يبادر بهذا الدنو الحالى ، لهو زوج كريم ، عرف واجبه حق المعرفة ، وأداه خير الأداء ، وغرس المحبة والهدوء فى البيت ، فأثمرت السعادة شجرة وارفة الظلال ، يستظل بها البيت ، ومن ثم المجتمع .

إذ أن « وجود ولى الأمر فى بيته يضبط الأمور ، ويمكنه من الإشراف على التربية وإصلاح الأحوال ، بالمراقبة والمتابعة ، وعند بعض الناس أن الأصل هو الخروج من البيت ، فإذا لم يجد مكاناً يذهب إليه ، رجع إلى البيت ، وهذا مبدأ خاطئ فإذا كان خروج المرء من بيته لأجل طاعات فعليه الموازنة ، وإذا كان خروجه للمعاصى وضياع الأوقات ، أو الإنشغال الزائد بالدنيا ، فعليه أن يخفف من المشاغل والتجارات ، ويحسم اللقاءات الفارغة » [(١)] .

التى تسرق عمره ، واستقرار بيته وسعادته ، وأن يعلم تماماً العلم أنه راع ومسئول عن رعيته ، كما قال رسول الله ﷺ : « **وإن الله تعالى سائل كل راع عما استراعاه أحفظ ذلك أم ضيعه ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته** » [(٢)] .

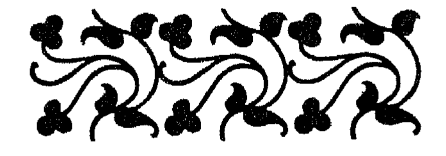
فليكن لنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة ، والقدوة العملية فى احتوائه أهل بيته والقرب منهن وتعليمهن ووعظهن ورعايتهن ، هذا إن أردنا أن تقتفى نساؤنا أثر أمهات المؤمنين الطاهرات – رضى الله عنهن – ، فإنه ﷺ قد بنى بيته بناءً محكماً صحيحاً ، ولهذا كانت نساؤه الطاهرات أنموذجاً مثالياً ،

---

(١) ٤٠ نصيحة لإصلاح البيوت ، الشيخ / محمد صالح المنجد .

(٢) حسن ، رواه النسائى فى عشرة النساء ، وابن ماجة عن أنس وهو فى صحيح الجامع (١٧٧٥) وفى السلسلة الصحيحة (١٦٣٦) .

تقتدى به كل مسلمة تبحث عن الرقى ، والقيمة الحقيقية للمرأة ، وتبحث عن معنى الأنوثة السامية ، بعيداً عن دروب التبذل والخلاعة والامتهان . بعيداً عن اللهاث خلف السراب .



المبحث الثالث
[والله ما أهجر إلا اسمك]

هل لك أيها الفاضل الكريم أن تنصت بقلبك ووجدانك إلى حوار دافء من حوارات بين النبوة الطاهر الودود ، إذاً فأرع أذنيك وقلبك أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق - رضى الله عنها وهى تقول :

قال لى رسول الله ﷺ : « **إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت عليّ غاضبة ، قالت** : فقلت : من أين تعرف ذلك ، **فقال : أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين لا** ورب **محمد ، وإن كنت غضبى قلت : لا ورب إبراهيم ، قال : قلت أجل والله يارسول الله ما أهجر إلا اسمك** » [1] .

بأرقى لغة من لغات التعبير عن روعة الأحاسيس ، وفى أرقى مراتب السمو الأخلاقى ، حوار ناعم صادق ، يفتح مغاليق القلوب ، ويذيب أى شائبة قد تعكر صفو الحياة الزوجية السعيدة ، فى كلمات سلسلة رقيقة تُشِعُّ على القلب محبة وعلى النفس رضا وعلى الروح إشراقاً وشفافية ، وعلى الدرب نوراً يبدد أى ظلمه يمكنها أن تعترض الحياة الهادئة الهانئة .

إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت عليّ غاضبة ، كلمات قليلات ، غير أنها حانيات دافئات ، تغمر القلب بفيض نورانى من السعادة المنقطعة النظير ، إذ تشعر الزوجة بمدى ملاحظة زوجها لانفعالاتها ، فغضبها يهمه ويؤلمه ، ورضاها يرضيه ويسعده .

ولاحظ دقة التعبير النبوى المعجز أيها المتذوق الكريم « عنى راضية ، عليّ

---

(١) البخارى ، باب النساء ووجدهن ، كتاب النكاح .

غضبى » ، فرضاها يحمد له ، إذ منه أسباب الرضا والقبول ، وغضبها يحسب عليه إذ يجب عليه معالجة أسباب الغضب والسخط وإعادة الهدوء والسكينة إلى البيت الودود .

وهذا وذاك يتحقق بكلمة حانية وتعبير دافئ حنون ، ويستمر الحوار الدافئ المثمر كلمات رشيقات عِذاب ، من أين تعرف ذلك ؟ ، إذا كنتِ عنى راضية قلت : لا ورب محمد ، وإن كنتِ عليّ غضبى قلت : لا ورب إبراهيم .

حين يكون الزوج رقيق الإحساس ، هادئ الطبع ، رجاعاً إلى الحق ، لا يضطر زوجه للتعبير عن غضبها – إن كان ثم ما يغضب – بفاحش القول أو صريح اللفظ أو صخب التعبير وإنما يكفيه منها لمحات قليلات مهذبات ، لتصله رسالتها المستاءة ، فيسرع إلى الإحسان والملاطفة ، وما أروع هذا الرجل وما أعظمه وقتذاك ... بل وفى كل الأوقات .

ويطمئن رسول الله عائشة رضى الله عنها أن رسالتها المهذبة تصله مباشرة مفصحة بلطف عن غضبها الرشيد ، فتجيب المحبة الحانية ، العالمة لزوجها قدره : « أجل يارسول الله ، والله ما أهجر إلا اسمك » .

الإسم فقط ، لمجرد الإشعار بالإحتجاج ، أما شخص الزوج الحانى بما زرعه من مودة فى قلبها ، وبما سلكه من دروب الرحمة والتواضع ، وبما فاض عليها به من رقة وحنان ، فإنه بعيد كل البعد عن مظنة الهجران .

إن رسول الله ﷺ لم يفوته أن يسامر زوجه ، ويحترم انفعالاتها ، ويحافظ على مشاعرها من منطق المودة والرحمة .

إذ المفترض فى الحياة الزوجية أن تكون رائقه شفافه ، بعيدة كل البعد عن مكدرات صفوها ، ولن يتحقق هذا التوحد وذلك الانسجام إذا وجد بين عنصرى الحياة الزوجية من به كدر أو إحساس بالقهر والتجاهل ، وغالباً ما يقع

هذا الكدر على الزوجة ، فتحي كسيرة النفس ، ذبيحة المشاعر ، محطمة الطموح ، معطلة القدرات .

وتزداد الهوة في بيت لم يوجد فيه السكن ، ولا نمت المودة والرحمة التي هي عمد البناء في الأسرة السعيدة ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم : ٢١] .

هل ينتظر إذاً من زوجة تُعامل بامتهان وقسوة أن تكون زوجة صالحة ، أو أماً حانية ، أو مربية حصيفة فاضلة ؟ بالطبع لا .

إذ كيف تبني الأسرة بناء محكماً من هي محطمة السقف مهدمة الأركان ؟! ، لهذا يجب احترام مشاعر المرأة ، وإتاحة الفرصة للتعبير المهذب عن وجهة نظرها واحترام رأيها ، فإن ذلك لمن أبسط حقوقها ، « وليعلم الرجال أن نساء النبي كن يراجعنه في الرأي فلا يغضب منهن ، لأنه يشرع للأزواج سنته المطهرة في معاملة زوجاتهم ، وهو القدوة في كل ما قال أو فعل .

قالت عائشة رضي الله عنها مرة وقد غضبت : « أنت الذي تزعم أنك نبي ؟! ، فتبسم رسول الله ﷺ واحتمل ذلك حلماً وكرماً » حديث صحيح .

وقد روى البخاري أنه جرى بين رسول الله ﷺ وعائشة كلاماً حتى دخل أبو بكر حكماً بينه ﷺ وبينها ، فقال لها رسول الله ﷺ : « **تكلمي أو أتكلم** ؟ » ، فقالت : تكلم أنت ، ولا تقل إلا حقاً ! فلطمها أبو بكر رضي الله عنه حتى أدمى فاها وقال : أو يقول غير الحق يا عدوة نفسها ؟! ، فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره ، فقال النبي ﷺ : « إنا لم ندعك لهذا ، ولم نرد منك ذلك » .

هذا هو حق الزوجة الذي شرعه رسول الله ﷺ في المعاملة فهن بشر قد

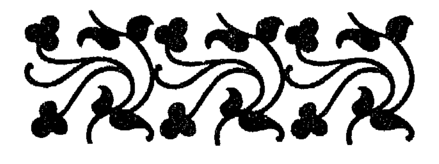
يخطئن فى حق أزواجهن ، ولكن بقاء الحياة الزوجية أسمى وأعز من أن تزلزلها غضبة زوجة ، ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة وهو الذى يقول : « استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوجاً ، فاستوصوا بالنساء خيراً » رواه الحافظ العراقى وصححه .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : والله إنا كنا فى الجاهلية ما نعد النساء شيئاً ، حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ... وبينما أنا فى أمر أأتمره أن قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ، فقلت لها : ومالك أنت ولما ههنا ؟ وتكلفك فى أمر الدين ؟ ، فقالت لى : « عجباً لك يا ابن الخطاب ! ، ماتريد أن تراجع أنت ؟ وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ... فقالت « أى حفصة رضى الله عنها » « إنا والله لنراجعه » رواه البخارى .

هذا هو أسلوب صحابة رسول الله الذين ملئوا الدنيا علماً ونوراً ، لم يغضب عمر حين راجعته زوجته وقدمت الدليل على صحة مسلكها حين راجعته متأسية بأم المؤمنين حفصة بنت عمر ، ولكن حرص أولاً على أن يتعلم عن زوجته ما لم يعلم ، فذهب إلى ابنته حفصة يستوثق من علم زوجته فأعلمته أنها صادقة ، ولكن لم يكتف بذلك التعلم ، بل حرص على أن يعلم المسلمين – كافة وهو أمير المؤمنين – بما تعلم عن زوجته وابنته وهما من نساء المؤمنين .

وعلى الرغم من قوامة الرجل فى منزله ، فإن الإسلام أمره بالتعقل والإقساط فيما يتخذ من قرارات ، وأباح لزوجته مراجعته ، وفرض عليه الاستماع والتحرى من الرأى الصواب بعد سماع مراجعة زوجته ، فإن وجدها على صواب ، أخذ برأيها دون حساسية ، فهى شقيقته فى الإنسانية « والدين »

وقد تعلم من الأمور ما لا يعلم ، لما وهبها الله من عقل وفكر ، وحريّ بالقيّم أن يكون الحق هدفه والعدل وسيلته لا الغطرسة والغرور فهما يجلبان الخطأ ويرديان موارد الهلكة »[1] .



(١) السعادة الزوجية في الإسلام ، أ / محمود الصباغ .

المبحث الرابع
[يتكئ في حجري ... فيقرأ القرآن]

كان رسول الله ﷺ غواصاً فى أغوار النفس البشرية ، أعرف بما يصلحها وما يفسدها حريصاً كل الحرص على أن يبنى نفوساً قوية ، تحمل الحق وإن ثقل ، وتمضى به شامخة أبيّة ، هازئة بكل معوقات الحضارة الإنسانية السامية ، ولم تكن النساء بمنأ عن هذا البناء المحكم ذلك أن النساء شقائق الرجال بل يقع عليهن العبء الأكبر فى تربية الناشئة وغرس أعظم القيم وأروع المثل فى نفوسهم فيشبوا أسوياء النفوس ، عمالقة الطموح ، عظماء الهمم وما معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنهما ، ذلك الداهية الذكى الألمعىّ إلا ثمرة تربية رائعة صاغته بها هند بنت عتبه رضى الله عنها التى كانت تردد دائماً « ثكلته إن لم يسدُ العالم أجمع » ، ولذلك حق له أن يفخر فى المجالس قائلاً : « أنا الذى ربتنى هند » .

لمثل تلك المرأة المبدعة كان اهتمام رسول الله ﷺ بالنساء ، وحرصه على سلامة الجانب النفسى للمرأة فى كل أحوالها وكان ذلك الحرص آكد فى ظروفها النفسية غير الطبيعية إذ تحتاج معها إلى طيب المعاملة ، ومزيدٍ من الحنو يعيد إليها إتزانها النفسى حتى تجتاز أزمتها فى سلام .

وبين جوانحنا الآن لمحات سريعة لكنها جد رائعة عن معاملة رسول الله ﷺ للمرأة فى ظروفها النفسية غير الطبيعة تزفها إلى قلوبنا عائشة رضى الله عنها فتقول :

[١] « كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبى ﷺ فيضع فاه على موضع

فِيّ فيشرب » [(١)] .

[٢] « **كان رسول الله ﷺ يتكئ فى حجرى وأنا حائض فيقرأ القرآن»** [(٢)] .

[٣] « **كان رسول الله ﷺ يخرج إليّ رأسه من المسجد وهو مجاور فأغسله وأنا حائض - وفى رواية - فأرجل رأسه وأنا حائض »** [(٣)] .

[٤] « عن عائشة قالت : « **كنت أغتسل أنا والنبى ﷺ من إناء واحد كلانا جنب »** [(٤)] .

ما أروعك وما أرق مشاعرك وما أسمى تواضعتك يا حبيبى يارسول الله .

أية عظمة هذه ؟ ، وأى قلب رقيق أنت ؟ ، وأى انتصار للمرأة فى مجتمع كان فيه الجاهليون يستقذرون المرأة إذا حاضت وكان فيه اليهود يعتزلونها فى وقت حيضتها ، فلا يؤاكلوها ولا يشاربوها ولا يجتمعون معها فى بيت !! .

فيجمع عليها هؤلاء وأولئك آلام الطمث ، وآلام الوحدة والإعتزال ، وآلام النفور والاستقذار فتعانى من عدة عذابات ، تتمنى معها لو لم تخلق أنثى ، أو أنها لم تخلق قط ، شعور بالمزلة والهوان والإنتقاص يترك صاحبته محطمة النفس ، مضطربة الشخصية خجلى من أنوثتها المضطهده ؛ لذلك قام رسول الله ﷺ بتغيير تلك المفاهيم الظالم أهلها حفاظاً على المرأة المنوط بها صياغة مجتمع سوى وأمة راقية .

وكان رسول الله ﷺ هو القدوة العلمية ، لتغيير تلك المفاهيم الخاطئة ،

---

(١) مسلم (١٤) (٣٠٠) جواز غسل الحائض رأس زوجها ، كتاب الحيض
(٢) البخارى باب قراءة الرجل فى حجر امرأته وهى حائض ، كتاب الحيض
(٣) مسلم (٢٩٧) باب ، جواز غسل الحائض رأس زوجها .
(٤) البخارى باب مباشرة الحائض كتاب الحيض

مبيناً مكانة المرأة الحقيقة فى ميزان الله تبارك وتعالى ، وأن الاختلاف بينها وبين الرجل ، إنما هو فى توزيع الأدوار فقط : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

فهما فى التكاليف سواء ، وفى الثواب والعقاب سواء ...

إن الإنسان عامة ، والمرأة – بوجه الخصوص فى أوقات سقمها العضوى أو النفسى – تكون فى أمس الحاجة إلى من يحتضن مشاعرها ، ويذيب بدفء حنانه سقيع المعاناة ومراراتها .

وها هو ﷺ يبدأ من بيته الطاهر المبارك ، معلماً الأمة كيف تكون المودة والرحمة ، مُعلماً الأزواج كيف يكون السكن والتوحد وحسن العشرة ، معلماً الزوجات ما لهن من حقوق ، تحفظ عليهن إنسانيتهن وتكفل لهن الحياة الكريمة .

كان ﷺ وهو يرفع الإناء الذى شربت منه زوجه ، ويتحرى موضع فيها ، ليضع عليه فاه الطاهر المبارك ، يرتفع بها على آلام الطمث ، وما يصاحبها من ضيق نفسى ، واضطراب عصبى ، منطلقاً بها إلى أقصى درجات العطاء الإنسانى ، محلقاً بها فى سماء السعادة والرضا والطمأنينة النفسية .

كم هى سعيدة تلك الزوجة التى يتحرى زوجها موضع فيها ليشرب منه .

كم هى سعيدة تلك المرأة التى يتكئ زوجها فى حجرها إتكاءة صبى ودود يغوص فى حضن أمه ، مستخرجاً خبيئة قلبها من لآلئ المشاعر وكنوز الأحاسيس

كم هى سعيدة تلك الزوجة التى يكون قرب زوجها منها ، بمثابة قربها هى من نفسها أو هو أقرب .

كان رسول الله ﷺ يتكئ فى حجر زوجه رضى الله عنها وهى حائض ثم يقرأ القرآن ، فيشنف به آذانها ، ويطمئن به قلبها ، ويرطب به عينها ، ويصلها بأسباب السماء ، اعترافاً بإنسانيتها التى لا تنال منها عوارض الأمور ، ولم تكن صلة رسول الله ﷺ بالمسجد تنقطع حين يكون فى البيت كما لم تكن صلته لتنقطع بالبيت وهو فى المسجد .

وها هو فى معتكفه بالمسجد - حيث انقطع لله تبارك وتعالى - يخرج رأسه إلى زوجه فتغسله وتمشطه له .

إيه يارسول الله !!! .

أية نسمة رقيقة أنت ؟! ، أى بشر فوق الملائكة أنت ؟! ، ما كان يضير رسول الله ﷺ وهو منقطع لله فى المسجد أن يغسل رأسه ويمشطه ؟

أهذا ما يعجز عنه رجل أو تتكاسل له ؟ .

إنما أراد ﷺ أن يؤنس أم المؤمنين رضى الله عنها ، ويدخل السرور على قلبها ، فكانت تلك اللفته الكريمة الرقيقة التى ملأت جنبات البيت غبطة وأُنساً ، صلى الله وسلم وبارك على سيد الخلق أجمعين .

أرفعهم مكانة ، وأسماهم منزلة ، وأكملهم رجولة ، وأعظمهم تواضعاً .

إن الله « عز وجل الذى خلق للرجال من أنفسهم أزواجاً ليسكنوا إليها ، وجعل بينهم مودة ورحمة ، يطالب الرجل بأن يرعى ما ساق إليه ربه من نعمة ممثلة فى الزوجة الموافقة الملائمة « الصالحة » .

نعم يطالب الله الزوج بأن يحسن معاشرته لزوجته ، فهى أحق الناس بالمعاملة الكريمة ، والمعاشرة الرقيقة ، لأنها شريكة حياته ، ومستودع سره ،

وزهرة بيته ، وأم ولده ، ومعتصم شرفه وعرضه .

والمحبة المعتادة بين الزوجين من الدواعى القوية المحرضه على حسن العشرة [١] .

(١) الدين والمجتمع . د / أحمد الشرباصي .

المبحث الخامس
[يا عائشة : ناوليني الثوب]

ينساب على أسماعنا وقلوبنا الآن عبق ساحر من فم أبي هريرة رضي الله عنه – الفواح دائماً بكل خير – يصف حواراً مختصراً ، لكنه فوق الروعة بما يفيض به من المعاني والدلالات :

عن أبي هريرة قال : بينما رسول الله ﷺ في المسجد فقال : يا عائشة ناوليني الثوب ، فقالت : إني حائض ، فقال : إن حيضتك ليست في يدك ، فناولته » [1] .

يا عائشة : ما أروع وقع اسم المرأة على قلبها وأذنها ، إذا ترنم به الزوج المحب الحنون ، إذ تصبح كلها آذناً طربة لرونقه المتألق ، ونضارته المتجددة مع كل نداء حبيب ، ومن المؤسف أن بعض الرجال يضنون على زوجاتهم بهذا الحق البدهي لاعتقاد البعض منهم أن اسم الزوجة عورة ، يجب أن توارى إلى الأبد ، ظناً منهم أن هذا من الالتزام بالدين ، أو من دواعي الغيرة ، وقد بعدوا وجانبوا الصواب ، فهل هناك من هو أعرف بالدين من رسول الله ﷺ ؟ ، وهل هناك من هو أغير منه ؟ .

كان رسول الله ﷺ ينادي زوجاته رضي الله عنهن بأحب الأسماء إليهن ، فتارة ينادي بالاسم الصريح ، وأخرى يرخّمه ، وثالثة يكني ، والرابعة يقول : هنتاه ، وهو في كل هذا ، رائع الرحمة ، عظيم التواضع ، فياض الحنان .

يا عائشة : ناوليني الثوب .

---

(١) مسلم (١٣) – (٢٩٩) باب جواز غُسل الحائض رأس زوجها .

- أيصح لى يارسول الله أن أدخل المسجد وأنا حائض ؟ ، أليس هذا تعدٍ على حرمة المسجد ؟ .

ويرد رسول الله ﷺ على تلك الأسئلة الضمنية « إن حيضتك ليست فى يدك » ، المؤمن لا ينجس أبداً ، إنما هو طاهر بطهر إيمانه ، وإن كان جنباً ، وإن كانت المرأة حائضاً أو نفساء ، إنما هى محاذير الشرع ، ليست لنجاسة المؤمن وإنما لنجاسة الحدث العارض من جنابة أو حيض أو نفاس .

هذه هى سماحة الإسلام ، وسماحة بنى الإسلام ﷺ .



المبحث السادس
[فدعاني فاضطجعت معه في الخيمة]

لم يكن حنو رسول الله ﷺ وتواضعه ورحمته قصراً على السيدة عائشة رضى الله عنها دون سائر أزواجه رضى الله عنهن أجمعين ، وإن كانت هى أحبهن إليه - إلا أنه ﷺ معصوم عن الظلم والجور - وإنما كان حسن خلقه ﷺ يسع الناس عامة ، والمسلمين خاصة ، وأهل بيته الكرام بذلك أولى وأحق .

وها هو ملمح آخر من فيض تواضعه ﷺ لزوجاته ، وحرصه عليهن ، ورفقه بهن فى كل أحوالهن - خاصة أوقات السقم والضعف - والمترنمة بنغم من فيض حنوّه ، وعظمة تواضعه ﷺ تلك المرة هى أم سلمة رضى الله عنها حيث قالت :

« بينما أنا مع رسول الله ﷺ مضطجعه فى خميصة إذا حضت فانسللت فأخذت ثياب حيضتى فقال : أنفست ؟ قلت : نعم ، فدعانى فاضطجعت معه فى الخميلة » [(١)] .

أن يكرم الله تبارك وتعالى المرأة بزوج عطوف ودود فتلك مكرمة ، وأن يهبها الله - تبارك وتعالى - زوجاً حانياً رحيماً رقيقاً فتلك مكرمة فوقها ، أن يهبها الله - أكرم من وهب - زوجاً متواضعاً حكيماً عظيماً فتلك مكرمة فوقها ، أما أن يجمع لها الله - تقدست ذاته - كل تلك المكرمات فى رجل واحد فقد والله أتتها جنة ربها لتحي فيها منعمة قريرة العين فى الدنيا قبل الآخرة .

---

(١) صحيح البخارى ، باب من سمى النفاس حيضاً ، ومسلم برقم (٢٩٦) .

ضنت أم سلمة رضى الله عنها على نفسها بقرب رسول الله ﷺ منها ، إذ حاضت فانسلت من فراشها بجواره ، تعظيماً له وإكباراً ، ولم يكن رسول الله ﷺ بالذى تخفى عليه مثل تلك الأمور ، فسألها بفيض من الحنان والرحمة والحب « أنفست ؟ » أى حضت .

قالت منكسرة حزينة لبعدها عن رسول الله ﷺ : نعم .

فجبر كسرها وأذهب حزنها بل وملأ بالفرحة قلبها إذ دعاها لتعود إلى جانبه إذ للحيض أحكام شرعية ، يجب الوقوف عندها ، أما المشاعر والأحاسيس والمعانى الرفيعة للحياة الزوجية على منهج الله تبارك وتعالى ، فما للحيض أو غيره عليها من سبيل ، ذلك هو التوحد الروحى بين الزوجين ، والذى لا يدركه بعض الرجال ، لذلك يصوغ الأستاذ محمود الصباغ وصية حانية يتحنن فيها الرجال على زوجاتهم قائلاً :

١ - كن لها كما تحب أن تكون هى لك فى كل ميادين الحياة ، وجوانب الحياة الزوجية ، فإنها تحب منك كما تحب منها .

٢ - شاركها وجدانياً فيما تحب أن تشاركك فيه ، فزر أهلها ... زيارات أسرية ، ولك فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة .

٣ - لا تكن مستبداً برأيك ، فاستشرها وخذ برأيها إن كان صواباً ، وإن خالفتها الرأى ، فاصرفها إلى رأيك برفق ولباقة ، ولك فى رسولك المربى العظيم ﷺ أسوة حسنة ، فقد استشار أم المؤمنين أم سلمة فى صلح الحديبية ، وكان رأيها خيراً وبركة ، فقد دخل عليها مغضباً قائلاً : « لقد هلك أصحابى » ، فسألته كيف يارسول الله ؟ فقال : « إنهم امتنعوا عن التحلل من الإحرام » ، فقالت : يارسول الله أخرج عليهم وتحلل وانحر هديك وهم سيفعلون ... وما إن فعل ﷺ حتى لم يشذ واحد منهم - رضى الله عنهم -

تأسياً برسول الله ﷺ ، فهذا هو الهدى النبوى الشريف فى سياسة البيت وسياسة الأمة .

٤ - اعطها قسطاً وافراً وحظاً يسيراً من الترفيه خارج المنزل ، كلون من ألوان التغيير ، وبخاصة إذا كانت ربة بيت وليست ذات عمل خارج البيت ، ولا تجعل زيارتك لأهلك برنامجاً ترفيهياً ، بل زرهم فى صحبتها غباً تزدد حباً .

٥ - لا تجعلها تغار من عملك بانشغالك به أكثر من اللازم ، ولا تجعله يستأثر بكل وقتك ، وبخاصة إجازة الأسبوع ، فلا تحرمها منك فيها إما فى البيت وإما خارجه حتى لا تشعر بالملل والسآمة .

٦ - إذا خرجت من البيت فشيعها بابتسامة وطلب الدعاء كما تحب أن تشيعك بذلك وبخاصة عند السفر .

٧ - وإذا دخلت فلا تفاجئ حتى تكون متأهبة للقائك ولئلا تكون على حال لا تحب أن تراها عليها وبخاصة إذا كنت قادماً من السفر .

٨ - حاذر من الكذب عليها واستعمل المعاريض فيما أحل الله « إن المعاريض لمندوحة عن الكذب » حتى لا تهتز شخصيتك الإسلامية أمامها .

٩ - إنها أختك فى الله والعقيد ، فأشعرها دائماً بهذه المنزلة فإنها سكنك وأم ولدك ، وأختك وهى كل شيء فى حياتك » (١) .

تلك هى وصايا الأخ الفاضل لأمثاله من الأفاضل الكرام ، والتى استمدها من أخلاق الإسلام ونبى الإسلام ، هذا فى حالة المرأة الطبيعية ، أما فى حالة سقمها بأى نوع من أنواع السقام ، فإن الزوج يكون ألطف وأرق ، أما أجر الله له فيربو ويضاعف - إن شاء الله - .

---

(١) السعادة الزوجية فى الإسلام .

المبحث السابع
[يحوي لها بعباءة]

هكذا كان ﷺ يدخل السرور على قلوب أزواجه ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، كما كان ﷺ يكرمهن وينزلهن مكانتهن ؛ لا لأنهن زوجاته فقط – وكفى بها شرفاً وكرامه – إنما لانسانيتهن التى أكرمهن الله تبارك وتعالى بها ولا يحق لمخلوق إهدارها أو امتهانها ، أو الانتقاص من قدرها ، وها هو مشهد من التواضع قد جمع كل الكمالات وأخذ بطرفى مكارم الأخلاق .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « **رأيت رسول الله ﷺ يحوى لها وراءه بعباءة ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفيه رجلها على ركبته حتى تركب** » (١) .

من هى تلك المُكرّمة ؟! إنها صفية بنت حيى بن أخطب ابنة سيد قومه وزعيمهم ، غير أنه يهودى استودع قلبه المظلم ميراث الحسد اليهودى لبنى الإسلام ، والحقد اليهودى على دعوة الإسلام ، وحمل على كاهله مهمة إيذاء المسلمين ومحاربة الدين .

وقد دفع هذا الجاهل حياته النكدة وحياة زوج ابنته صفية ثمناً لهذا الحقد اللعين ووقعت هى أسيرة فى أيدى المسلمين .

كان يمكن لرسول الله ﷺ أن ينضجها على نيران الرق والمذلة والهوان غير أن حسن خلقه وسماحة دعوته ﷺ أبت إلا أن يرحم ذلها بعد عز ، ويرحم خوفها بعد أمن ويرحم رقها بعد سيادة وشموخ ، فأعتقها وكفى بالعتق رحمة

---

(١) البخارى ، باب هل يسافر بالجارية قبل أن يستبرئها . كتاب البيوع .

وإحساناً .

لكنه ﷺ أبى إلا الزيادة على الإحسان فتزوجها وصارت بها أماً للمؤمنين بعد أن كانت من أحفاد القردة والخنازير ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وأصبح لها من الحرمة ما لهن ، بحيث يحوى لها رسول الله ﷺ وراءه بعباءة فيكسبها مزيداً من الجلال والشرف والرفعة ، ثم يجلس ﷺ عند بعيره فيضع ركبته الشريفة لتضع رجلها عليها حتى تركب .

ارتقت صفية رضى الله عنها ظهر البعير لكنها فى تلك اللحظة قد ارتقت قمة الشموخ والسمو والعظمة باقترانها بالنبى ﷺ مسلمة موحدة صادقة الإيمان ، قد أطلت من ذلك الإرتفاع السامق على عرشها الزائل وسيادتها الوهمية السابقة ، فما زال يلهج قلبها ولسانها بالحمد والثناء لله تبارك وتعالى أن أبدلها بذلك الإنحطاط هذا الشموخ ، وبتلك الدناءة هذه الرفعة ، وبدركات الجحيم درجات النعيم فعاشت فى كف رسول الله ﷺ مؤمنه عابده مخلصة ، وعاشت فى ضمير الأمة ، أماً فاضلة طيبة الذكر رفيعة القدر ، وما ذلك إلا رحمة الله تبارك وتعالى ورأفة رسوله بها وتواضعه لها ، فكان زواجه بها جبراً لكسرها وضماداً لجراحاتها وإبدالاً لها بعرش المذلة والخسران عرش الخلود والعرفان فى قلب الأمة أبداً .

إن بركة إخلاص الزوج لزوجه ، وتواضعه لها ، وحرصه عليها يصوغها إخلاصاً وتواضعاً له ، وكذلك إخلاص الزوجة وتواضعها ، فبهما يكون الزوجان نفس واحدة فى جسدين :

١ - فلا يتعالى طرف على طرف ، بل يكون كل منهما آلف من الآخر جانباً حتى لا يشعر منه برهبة ولا يحس فى معاشرته بوحشة .

وإذا كان المؤمن للمؤمن كالبُنيان يشد بعضه بعضاً ، فإن الزوج والزوجة

هما البنيان نفسه ، والتآزر بينهما والتواد هو صفة ملازمة لكل بنيان ناجح من هذا القبيل ، إن بنيان الأسرة هو أشبه ما يكون ببنيان الجسد الواحد والتعاون والتوادد بين أفرادها ، لابد أن يكون كالتعاون والتواد بين أعضاء الجسد الواحد ، فالعين ترى الطعام والنفس تشتهيه ، فتتحرك اليد لتنقله إلى الفم حيث يمضغه ، ويرسل به إلى المعدة حيث تهضمه ، وتقتدى بها سائر الأعضاء دون كلل أو ملل ، الكل يؤدى دورة لتحقيق حاجة الجسد فى سعادة وسرور ، لهذا الأداء لا يمن عضو على عضو ، ولا يتعالى ولا يتردد فى سرعة إجابة طلب العضو الآخر .

وهكذا الزوجان ، فهما بناء الأسرة المؤمنة ، وإذا كان القرآن الكريم فى الآية (٨٨) من سورة الحجر يوصى المؤمنين بقوله : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فإن الزوجين هما أقرب المؤمنين قرباً ، وأوجبهم للالتزام بهذه الآية الكريم ، « وكم كانت وصية أمر أياس الحكيمة لابنتها مجلبة لحب زوجها وتواضعه » ، إن كل ما أوصت به أمّ إياس ابنتها بالخضوع « لزوجها » وحسن السمع والطاعة ، والتفقد لمواضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منها على قبيح ، ولا يشم منها إلا أطيب ريح ، هو من قبيل دفع ابنتها لتكون لزوجها كأى عضو من أعضاء جسمه ، تعمل « تلقائياً » كل ما يدخل على قلبه السرور ، ويحقق له الراحة والهدوء ، فهى تتفقد وقت منامه ووقت طعامه ، وتحافظ له على ماله ، وتحسن رعاية عياله ، وتحفظ له سره دون أن تشعر وهى تؤدى ذلك كله أنها تحمل عبئاً ، بل تؤدى واجباً طبيعياً ، وإذا كانت أم إياس قد أرادت ذلك من بنتها لزوجها ، فإن رسول الله ﷺ قد أراد ذلك من كل زوج لزوجته ، فهذه الواجبات جميعاً مشتركة بين الزوجين ، وليست وقفاً على واحد منهما دون الآخر ، إلا أن مجال أداء هذه الواجبات يختلف باختلاف تخصص الزوجين فى بناء الحياة الزوجية .

٢ – إذا كان على الزوجة أن تقنع بما يوفره لها زوجها من رزقٍ رزقه الله به ، فإن على الزوج أن يقنع بما توفره له زوجته من راحة .

٣ – إذا كان على الزوجة أن تسمع وتطيع زوجها فى كل أمر لا يغضب الله ، فإن على الزوج أن يسمع لزوجته ويطيعها فى كل أمر لا يغضب الله ولا يضر بالأسرة ، لأن اتحاد الهدف بين الزوجين تحقيق السعادة لكليهما مع الإلتزام بإرضاء الله تعالى فى كل ما يقولان ويفعلان يتبعه حتماً اتحاد الفعل والفكر بينهما ، فيبدوان وكأن كلاً منهما يعمل ما يريده الآخر دون أدنى اعتراض ، بالضبط كما تتبادل أعضاء الجسم الواحد الخدمات دون تأفف أو تمنع أو تأخير لأنها أعضاء فى جسد واحد .

إن أول شقاق يمكن أن يحدث بين الزوجين يقع فى اللحظة التى يتبع أحدهما هواه ، ولا يلتزم باتباع أمر الله ، وإن زوال مثل هذا الشقاق يكون أيسر ما يكون فور ترك الهوى والرجوع إلى الله .

٤ – إذا كان على الزوجة أن تتفقد مواضع عين زوجها وأنفه ، فلا تقع عينه منها على قبيح ، سواء فى زينتها أو زينة منزلها ، ولا يشم منها إلا أطيب ريح سواء فى نفسها أو فى منزلها ، فإن ذلك لأنها سكنه الذى تسكن برؤيتها نفسه ، ولأن منزلها هو واحته التي يستظل بها بعد عناء العمل ، فيسترد قوته وينعم جسده .

وكذلك فإن على الزوج أن يتفقد مواضع عين زوجته وأنفها ، فلا تقع عينها منه على قبيح سواء فى زينته أو فى عمله أو فى لهوه ، ولا تشم منه إلا أطيب ريح سواء فى زينته أو فى عمله أو فى مرحه ولهوه ، فإن تزين لها وتطيب ، فذلك لأنه سكنها الذى تسكن برؤيته ، وبالقرب منه نفسها ، فلا تنظر إلى غيره ، وإن خشى الله واتقاه فى عمله ، فإن ذلك هو رزقها الذى

يطيب لها حلالاً ، ويسعدها زلالاً ، وإن التزام السُنة فى مرحة ولهوه ، فإن ذلك هو سعادتها التى ينشرح لها صدرها ما دام هذا المرح واللهو طيباً مباحاً .

٥ – إذ كان على الزوجة الاحتراس فى مال زوجها والإرعاء على عياله ، فذلك لأن ماله هو رزقها ورزق عيالها ، الذى يجب فيه المحافظة ويحرم فيه التبذير ، ولأن عياله هم عيالها الذين أودعهم الله فى يديها ، واستوجب فيهم حسن الرعاية والتربية والتوجيه ، وكذلك فإن على الزوج ما على الزوجة من الإحتراس فى ماله والإرعاء على عياله ، فهو أولى بالمحافظة على ماله ، فلا ينفقه إلا فى أمر الله ، وعلى عياله فلا يغفل شأناً من شئونهم ، ولا يهمل ولا يجهل واجباً من واجباتهم .

٦ – وإذا كان على الزوجة ألا تفرح بين يدى زوجها إذا كان مغتماً ، ولا تواجهه بالكآبة بين يديه إذا كان فرحاً ، فإن الزوج أحرى بذلك وأولى ، فلا يفرح بين يدى زوجته إذا كانت مغتمة، ولا يواجهها بالكآبة إذا كانت فرحة ، ذلك لأن وحدة الشعور والعواطف بين الزوجين من ألزم اللوازم لوحدة الأرواح فإذا كانت المشاركة فى الأفراح والأحزان فريضة على المسلم لأخيه المسلم ، فهى أوجب ما تكون بين الزوج وزوجته .

يقول رسول الله ﷺ : « **خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى** » .

٧ – وإذا كان على الزوجة أن تتجنب الغيرة وكثرة العتب لتستقر حياتها الزوجية ، فإن ذلك على زوجها أوجب ؛ لأنه على كبح جماح عواطفه أقدر ، ولحسن ضبطه للألفاظ والأحكام أعلم ، فلا يجوز له أن يجرح مشاعرها بظن سيء أو لفظ قبيح ، بل عليه أن يداوى ويطيب ، بأفق أوسع وقلب أرحب .

٨ – وإذا كان على الزوجة أن تكون لزوجها زوجة وأماً ، فعلى الزوج أن يكون لزوجته زوجاً وأباً ، فهو كل شيء فى حياتها هو مستقبلها وأهلها ورب

أسرتها ، هي ترعاه داخل البيت رعاية الأم لابنها ، ترتب له فراشه ، وتنظم له طعامه ولباسه ، فإذا خرج ودعته ، وطيبته بأحسن طيب ، فهي زوجه الحنون ، أحسن عليه من أمه الرؤوم .

وكذلك الزوج فهو كل شيء في حياة زوجته ، يوفر لها المسكن والملبس والمطعم ، ويدفع عنها أسباب كل أذى أو ضيق ، يشاركها الشعور والعواطف في حياتها ، فهو أب لأولادها ، يشعرها بحنان الأب ورعايته وحب الزوج وعنايته ، في كل حركة من حركاته ، وكل سكنة من سكناته .

٩ - وإذا كان على الزوجة أن تنبه زوجها إلى تنفيذ ما أمره الله من رعاية لأهله وخشية في عمله ، فإن على الزوج أيضاً أن ينبه زوجته إلى تنفيذ ما أمرها الله من طاعة لربها ، ورعاية أهلها ، وخشية في بيتها .

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه : ١٣٢] .

فإذا تعاون الزوجان على طاعة الله ، والالتزام بأوامره ، والإنتهاء عن نواهيه كان ضمان رزقهما ، وحسن عاقبتهما على الله رب العالمين »[1] .

فرسول الله ﷺ حين كان يحوى لصفية أم المؤمنين رضى الله عنها بعباءة إعلاناً لحرمتها كزوجة له ﷺ قد حوى كل تلك المعاني الرائعة ، وحين وضع ركبته الشريفة لترتقى عليها أم المؤمنين رضى الله عنها ، كان قد وضع كل أسس الحياة الزوجية السعيدة ، وأولها التواضع والتوحد والرقى بالزوجة إلى أرفع مكانة يمكن أن تصل إليها ملكاتها وقدراتها .

---

(١) السعادة الزوجية فى الإسلام . أ / محمود الصباغ .

المبحث الثامن
[فمن يبتدرن الحجاب]

إن من أراد التحليق فى بيت النبوة الطاهر الكريم ، يقضى أعماراً وأعماراً – إن كان له إلى ذلك من سبيل – يطير من غصن إلى غصن ، ومن زهرة إلى زهرة ، ومن رحيق إلى رحيق ليظل أبداً مستمتعاً مغتذياً متعلماً متأدباً متفكراً مستنبطاً ، ومع ذلك فلن يظفر من تلك الحياة الرائعة بأكثر مما تظفر به فراشة ضئيلة من رحيق بستان متألق الروعة مترامى الأطراف فواح العبير ، ذلك إن دراسة تلك الحياة الباهرة ، تتطلب أجيالاً وأجيالاً من العلماء المتخصصين فى شتى مناحى العلوم الإنسانية ، والشرعية ، والأدبية ، والعلمية ، لا لصعوبة تلك الحياة أو غرابتها ، وإنما لنفاستها وروعتها وكمالها ، ولهذا فإننا سوف ننسحب على استحياء بعيداً بعض الشيء عن بيت النبوة الطاهر غير راغبين عنه ولا مكتفين منه ، إنما لنلتقى رسول الله ﷺ خارج بيت النبوة ، فنجده كالعهد به دائماً ، واسع الرحمة ، جم التواضع ، وافر الرقة ، فياض العطاء .

يصحبنا إلى ذلك اللقاء الممتع سيدنا سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه حيث قال:

استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن ، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال عمر: أضحك الله سنك يارسول الله ، قال : عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى ، فلما سمعن صوتك إبتدرن الحجاب ، قال عمر : فأنت يارسول الله كنت أحق أن يهبن ، ثم قال : أى عدوات أنفسهن ، أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟ ، قلن : نعم ، أنت أفظ وأغلظ من روسل الله ﷺ ، قال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكاً

فجأ إلا سلك فجاً غير فجك » [(١)] .

كان لابد للنساء إذ عرفن قيمتهن الحقيقة ، ومكانتهن من الشرع الحنيف وأن لهن مثل ما للرجال وعليهن مثل ما عليهن من الواجبات الشرعية ، أن يجتمعن إلى متلقى الوحى ، المعلم الأول ﷺ ليعلمهن ويرشدهن ، ويربيهن ويؤدبهن بآداب الإسلام ، فيصدرن مرتويات من نبعه الصافى وعطائه الفياض .

وها هن يسألن ويستوضحن رسول الله ﷺ ما التبس عليهن من مُختلف الأمور ، وقد آنسن منه كل التواضع والألفة ولين الجانب وسعة الصدر ، ما أطمعهن فى فيض كرمه ، وغزير علمه ، وروعة أدبه ، فاستكثرن عليه منتشيات بروعة اللقاء ، عالية أصواتهن كالطفل المدلل يأنس من الأب الحالى ساعة صفو وانشراحة صدر ، فيحلق فى آفاق الأبوة الحانية ، يرتشف منها ما يقوى عوده ويثرى فكره ، ويثقل شخصيته ، فينشأ سوى الشخصية ، قوى البنيان ، قادراً على خوض معترك الحياة ، بمهاره ونجاح ، بل يصبح قادراً على التجديد والابتكار .

هكذا استمرت النسوة فى انطلاقتهن الباحثة على المعرفة المغتبطه بفيض العطاء النبوى الكريم حتى انتزعهن من هذه الانطلاقه الرائعة صوت عمر رضي الله عنه ، وما أدراك ما صوت عمر ؟ ، بل ما أدراك من هو عمر ؟ .

فابتدرن الحجاب لائذات بصمتهن ، متقيات سطوة عمر رضي الله عنه ، وما لهن لا يهربن من عمر رضي الله عنه برقتهن وضعفهن ورهافة مشاعرهن ، والشيطان على صلفه وغروره وتمرده يهرب منه ؟ .

أدهش موقف النسوة سيدنا عمر رضي الله عنه إذ أن رسول الله ﷺ أولى بالمهابة

---

(١) رواه البخارى ، باب صفة إبليس وجنوده ، كتاب بدء الخلق

وأحق ، فانطلقت الدهشة سؤالاً مستنكراً لائماً معنفاً : « أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟ » ، وجاءت إجابة النسوة تفسيراً للموقف وتوضيحاً للحقيقة ، نعم ، فقد احتوانا رسول الله ﷺ بفيض حنوه وعظمة تواضعه ، ولين جانبه ، أما أنت فقد أخفتنا بفظاظتك وغلظتك يا عمر .

إن مهابة النسوة لعمر ليست لتفوق شخصية عمر رضي الله عنه على شخصية رسول الله ﷺ ، كلا وحاش لرسول الله ﷺ أن يفوقه بشر أو يحاذيه ، وإنما قد وسع جناحه الخفيض للمؤمنين ، ما لم تسع شدة عمر ووسعت رحمته ورأفته ، ما لم تسع صلابة عمر رضي الله عنه .

هكذا انطلق بهن تواضع رسول الله ﷺ إلى أسمى آفاق البحث والتعلم والمعرفة ، في أجواء من الدفء وحرية التعبير ، وصحة بناء الشخصية ، وصدق البحث عن الذات ، فكان لهن من درجات الكمال ما ليس لكثير من الرجال ، وكن في السلم عوناً لأزواجهن على الطاعة والعبادة حتى تقول إحداهن لزوجها إذا همّ بالخروج لاكتساب الرزق : اتقِ الله فينا ، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار .

وكن في الحرب المؤتمنات على العرض والمال والولد ، يرعين حق الله فيما استخلفهن فيه ، ويرعين حق الزوج في غيبته وحضرته ، ويرعين حق الصغار في التربية على منهج الله عز وجل ، بل وكن في ساح الوغى أثبت على الشدائد من بعض الرجال .

هؤلاء هن النساء اللائي رباهن رسول الله ﷺ ، فكان منهن الرميصاء رضي الله عنها التي يراها رسول الله ﷺ في الجنة وهي بعد في دنيا البشر ، وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها التي ضربت أروع المثل في قوة النفس والثبات على العقيدة ، وخولة رضي الله عنها التي وعظت عمر بن

الخطاب رضي الله عنه موعظة بليغة تصدع لها قلبه وزرفت لها عيناه .

ناهيك عن أمهات المؤمنين الطاهرات رضى الله عنهن ، فهن المثال الأرقى والقدوة الأسمى فى كل مجال من مجالات الفضائل ، فضلاً عن درة التاج فى مفرق محامد الصفات ، ومكارم الأخلاق ، بضعة أبيها وسيدة نساء الجنة فاطمة أم الحسنين عليها السلام .

ولو كل النساء كما ذكرنا   لفضلت النساء على الرجال
فما التأنيث لاسم الشمس عيباً   ولا التذكير فخر للهلال

الفصل الثالث

تواضعه ﷺ للأطفال

المبحث الأول : كان يصلي وهو حامل أُمامة .

المبحث الثاني : اعتنق كل واحد منهما صاحبه .

المبحث الثالث : يا أبا عمير : ماذا فعل النُغير ؟ .

المبحث الرابع : أتأذن لي أن أعطيه الأشياخ ؟ .

المبحث الخامس : كان النبي ﷺ يفعله .

المبحث الأول
[كان يصلي وهو حامل أمامة]

حين تشتد علينا وطأة الأيام ، أو تعصف بنا قسوة الأحداث ، أو تجهد قوانا مواجهة واقع ما ، نجنح قليلاً إلى واحة الطفولة الغناء ، نستروح فى ظلالها ، ونتطهر فى غدير براءتها ، ونتخفف من عبء الغربة ومرارة الترحال عبر مراحل الحياة المختلفة وما تتطلبه من نمو فى الشخصية وتطور فى الأسلوب والأداء نغوص بعض الوقت داخل أنفسنا ، مستمتعين بذكرى طفولتنا السعيدة ، ، حيث جناحي الأمومة الحانية والأبوة المعطاءة ، نسبح فى نهر الفطرة النقية والبراءة الطاهره ، لحظات نجدد بها الثقة بأنفسنا ، ونستجمع فى ظلها قوى ربما تشتتت مع كثرة المفارق وزحمة الطرقات ، فتكون لحظات الإستجمام الرائعة تلك عوناً لنا على تقويم العوج ، وإعادة الإتزان ، ومواصلة الرحلة بخطا ثابتة واعية ، عبر طريق قويم ، أضاءته لنا مبادئ التربية الأولى .

ولا يمكن أن يتحقق كل هذا إلا أن تكون التربية الأولى واعية مستبصرة بطبيعة الطفولة ، وما تتطلبه من عاطفه حية ، وعقلية واعية ، ومرانة اسلوب قائم على أسس علمية سليمة ، وتلك حقيقة قررها إمام المربين ﷺ ، حيث أرسى قواعد التربية السليمة من خلال معايشته لأطفال حق لهم أن يسعدوا بوجود رسول الله ﷺ بينهم ، إذ رباهم على عينه ، والتواضع سمة رائعة ، وقاعدة راسخة من قواعد التربية المثمرة ، فتواضع المربى للناشئة يجعله يتبسط معهم ، ويتودد لهم ، ويتقرب إليهم ببذل أقصى ما لديه من العلم والجهد ، وكثير من المرونة ما بين اللين والحزم ، كل فى موضعه ، فتثمر تلك التربية فى قلب الناشئة رجالاً صلحاء ، بناهم الجهد ، وكملهم العلم ، وأنضجهم اللين ،

ودعمهم الحزم .

وتواضع رسول الله ﷺ للأطفال ، صورة رائعة من صور الحنو والرحمة واحتضان عقولهم الغضة ، والإرتقاء بتصوراتهم وقدراتهم ، مما يجعلها تتفتح على احترام الآخرين لها ، وتقديرهم لملكاتها ، فتصبح الشخصية المنتجة المعطاءة المبدعة فى شتى مناحى الحياة .

التواضع للأطفال إذاً قيمة تربوية هامة سنها لنا المربى العظيم ﷺ لتكون زاداً لمن أراد أن ينهض بالأمة ، إذ لا يتأتى ذلك إلا من خلال النهوض بالناشئة والإهتمام بهم ، ليس من لحظة بدء تفاعلهم مع المجتمع ، وقدرتهم على التعبير عن إدراكاتهم وانفعالاتهم ، إنما منذ لحظاتهم الأولى ، فمنها يبدأ الإنبات المبارك إن شاء الله .

عن أبى قتادة الأنصارى رضي الله عنه « **أن رسول الله ﷺ كان يصلى وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ ، ولأبى العاص بن ربيعة بن عبد شمس ، فإذا سجد وضعها** » [(١)] .

إنه الدفء الحانى الذى يفتح أكمام الزهر برفقه الودود ، فإذا به نضيج الثمر نفيس القيمة ، حلو المذاق ، رائع الأريج .

صورة رائعة لجد كريم رحيم ، يحمل على كاهله هم الدعوة وتربية الأمة ، ثم لا يفوته أن يحمل حفيدته الصغيرة ، تواضعاً لمشاعرها ، وحنواً على ضعفها ، ورحمة لبكائها ، يحملها ليس فى وقت فراغه فقط ، ولا وقت إنشغاله بأمر من أمور الدنيا فحسب ، إنما فى الصلاة !! أرقى التكاليف الشرعية بعد شهادة التوحيد .

---

(١) صحيح البخارى ، باب من حمل جارية صغيرة على عنقه فى الصلاة ، كتاب الصلاة .

لحظات يلقى الإنسان فيها الدنيا وراء ظهره ، ويرتقى فيها عن طينيته إلى آفاق السماء ليعود مضيئاً ظلمة الطين بنور اليقين ، فيمضى على صراط الله المستقيم مضيئاً فى ذاته ، مشعاً فيض نوره على من حوله ، فيكون لهم سبيل الهُدى ودليل الرشاد .

فى تلك اللحظات الرائعة ، يحمل رسول الله ﷺ طفلته الحبيبة ، فيؤنس وحشتها ، ويؤمن خوفها ، ويهدئ من روعها ، فإذا بها ساكنة النفس ، آمنة الفؤاد ، يمزج التكبير بنبضها ، ويصاحب تسبيحه أنفاسها ، ويسرى التهليل بعروقها ، فأية مؤمنة تصبح هى ؟ وأية مربية أجيال تكون ؟ .

صورة يعجز عن احتوائها إبداع شاعر ، أو بلاغة أديب ، أو ريشة فنان ، نسوقها لبعض الآباء الذين يغتالون طفولة أطفالهم ، ويقتلون روح المرح فى قلوبهم الخضراء ، ويحاولون كبت طاقاتهم الطبيعية ، بدعوى حق الأب فى الراحة بعد جهد العمل ومشقة السعى ، وهذا بالطبع لا يتحقق إلا بصمت الأطفال الرهيب ، فلا حراك ولا نقاش ، لا دعابة ولا حنان ، لا حياة .

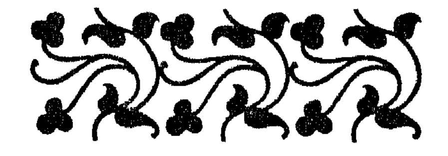
وإذ بالطفل الذى ينتظر الفرحة القادمة مع الأب العائد بعد ساعات غياب ، يجدها إرهاباً وتسلطاً ، وإذ بالأعطيات القادمة مع الأب عصبية وصرامة غير راشدة ، وإذ بالحنان المأمول جدار من الجليد فيتقوقع الطفل المحبط داخل نفسه ، دافناً خيبته بين ضلوعه الملتاعه متمنياً ألا يطول بقاء الأب المتسلط فى البيت ، وتبدأ الفجوة منذ البداية ، رويداً رويداً تتسع الهوة بين الأباء والأبناء فيكثر العقوق والشقاق .

وهل ينتظر لثمرة تلك التربية الخاطئة إلا العطب ومرارة المذاق ؟! .

وهل ينتظر الأب الذى يبخل على أبنائه بحقهم فى حنو الأبوة وحدبها أن يجد لديهم بر البنوة وحبها ؟! ... هيهات هيهات .

إن « من الأمور التى يكاد يجمع علماء التربية عليها ، أن الولد « ذكر كان أو أنثى » إذا عومل من قبل أبويه أو مربيه المعاملة القاسية ، وأُدب من قبلهم بالضرب الشديد والتوبيخ القارع ، وكان دائماً الهدف فى التحقير والإزدراء ، والتشهير والسخرية ، فإن ردود الفعل ستظهر فى سلوكه وخلقه ، وإن ظاهرة الخوف والانكماش ستبدو فى تصرفاته وأفعاله ، وقد يؤول به الأمر إلى الانتحار حيناً أو إلى مقاتلة أبويه أحياناً ، أو إلى ترك البيت نهائياً تخلصاً مما يعانيه من القسوة الظالمة ، والمعاملة الأليمة .

فلا عجب – وهذه حاله – أن نراه أصبح فى المجتمع مجرماً ، وفى هذه الحياة شاذاً ومنحرفاً !! ولا عجب أن ينشأ على الإعوجاج والميوعة والإنحلال !! والإسلام بتعاليمه القويمة الخالدة ، يأمر كل من كان فى عنقه مسئولية التوجيه والتربية ، ولا سيما الآباء والأمهات منهم ، يأمرهم جميعاً بأن يتحلوا بالأخلاق العالية ، والملاطفة الرصينة ، والمعاملة الرحيمة ، حتى ينشأ الأولاد على الاستقامة ، ويتربوا على الجرأة واستقلال الشخصية ، وبالتالى حتى يشعروا أنهم ذوو تقدير واحترام وكرامة » (١) .



(١) تربية الأولاد فى الإسلام ، أ / عبد الله الناصح علوان .

المبحث الثاني
[اعتنق كل واحد منهما صاحبه]

إن الطفولة أمانة لدى المجتمع بوجه عام والأسرة بوجه خاص ، والأبوين بوجه أخص ، إذ المجتمع هو الشجرة الحاضنة ، والأسرة هي العش الهانئ ، والأبوان هما جناحي الدفء والسكينة .

يسعد بهما النشأ ويرتقي ، وإلا فالتعاسة والانحراف ، لذا كان للطفولة آداب ومحاذير ، وحقوق ومقتضيات ، صاغها الشرع الحنيف ، وترجمها رسول الله ﷺ واقعاً عملياً يفوق في جماله ، أروع ما في أروقة الخيال من جمال .

وها نحن نتنسم عبيره في زهرة ندية يهدينا إياها أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال : خرجت مع رسول الله ﷺ في طائفة من النهار لا يكلمني ولا أكلمه حتى جاء سوق بني قينقاع ثم انصرف حتى أتى خباء فاطمة فقال : « **أثم لكع ؟** » يعني حسناً ، فظننا أنه « إنما تحبسه » أمه لأن تغسله وتلبسه سخاباً ، فلم يلبث أن جاء يسعى حتى اعتنق كل واحد منهما صاحبه فقال رسول الله ﷺ : « **اللهم إني أحبه فأحبه ، وأحب من يحبه** » (١) .

عصافير زغب هم الأطفال ، يقتلهم البرد إن لم يحتضنهم جناح دفيء ، يحرقهم الهجير إن لم يحتويهم غصب رطيب ، يهلكهم الجوع إن لم يطعمهم منقار حبيب ، ويسحقهم الضياع إن لم يضمهم عش أمين .

خرج رسول الله ﷺ إلى السوق لأمر قد شغل فكره ، وملأ عليه خاطره لدرجة لم تدع له فرصة مجاذبه أطراف الحديث مع أبي هريرة رضي الله عنه ، وإلا

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٤٢١) .

فرسول الله ﷺ طيب الصحبة حلو المؤانسة .

انصرف رسول الله ﷺ من السوق إلى خباء فاطمة رضى الله عنها يسأل عن الصغير الحبيب بهجة أيامه وزينة دنياه .

وها هو الصغير يستقبل الجد الحبيب استقبال العيد بهجة وانتعاشاً ، جاء الصغير يرفرف بأجنحة الشوق واللهفة والسعادة تتلاحق خطاه الصغيره ، الملهوفة حتى ارتمى بين أحضان جنته الرحبه ، احتوى رسول الله ﷺ الصغير بفيض الحب والدفء والتواضع والرحمة ، واعتنقت الأيدى الصغيرة الغضة رسول الله ﷺ عناق من يخاف أن تنفلت منه السعادة بعد أن أطبق عليها يديه وقلبه وجفونه ، ما أجمل الدفء ، وما أروع الرحمة ، وما أعظم التواضع ، أية رقه هذه ؟ .

أى منهج تربوى ذلك الذى يكفل حق الطفولة ، فى حياة هانئة سعيدة ، تكون منطلقها نحو مستقبل واعد ، بخطىً ثابته واعية ، إنه المنهج الربانى ، الذى انتهجه رسول الله ﷺ ليكون نبراساً وهدىً للعالمين .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

إن « من أظهر المسئوليات التى اهتم الإسلام بها ، وحض عليها ، ووجه الأنظار إليها ، هى مسئولية المربين تجاه من لهم فى أعناقهم حق التعليم والتوجيه والتربية ، فهى فى الحقيقة مسئولية كبيرة وشاقة وهامة لكونها تبدأ منذ سنى الولاده ، إلى أن يدرج الولد فى مرحلتى التمييز والمراهقة ، إلى أن يصبح مكلفاً سوياً ، ولا شك أن المربى سواء أكان معلماً أو أباً أو أماً أو مشرفاً اجتماعياً ، حين يقوم بالمسئولية كاملة ، ويؤدى الحقوق بكل أمانة وعزم ومضاء على الوجه الذى يتطلبه الإسلام ، يكون قد بذل قصارى جهده فى

تكوين الفرد بكل خصائصه ، ومقوماته ومزاياه ، ثم بالتالى يكون قد أوجد الأسرة الصالحة بكل خصائصها ومقوماتها ومزاياها ، ويكون كذلك قد أسهم فى بناء المجتمع المثالى الواقعى بكل خصائصه ومقوماته ومزاياه لتكوين الفرد الصالح ، والأسرة الصالحة ، وهذا هو منطلق الإسلام فى الإصلاح .

ونحن لو تتبعنا آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول الأعظم ، صلوات الله وسلامه عليه فى إهابتها المربين للقيام بمسؤولياتهم ، وتحذيرها إياهم إذا قصروا بواجبهم ، لو تتبعنا ذلك لوجدناها أكثر من أن تحصى ، وأعظم من أن تستقصى، وما ذاك إلا ليعلم كل مربٍّ ضخامة أمانته ، وعظم مسئوليته » [(١)] .

خالص الدعاء – بخير ما سأل رسول الله ﷺ ربه عز وجل – لكل أب وأم ودودين ، يفيضان على بيتهما بالبشر والرحمة .

خالص الدعاء لكل أب وأم يربيان أولادهما على حب الله تبارك وتعالى ، وحب رسوله ﷺ ويضرعان إلى الله تبارك وتعالى أن يمن عليهم بحبه ، تأسياً بدعاء النبى الكريم ﷺ فيتقبلهم ربهم بقبول حسن ، وينبتهم نباتاً حسناً – إن شاء الله – وأشهد الله أننى أحب ريحانتنا رسول الله ﷺ علنى أحظى من دعائه المبارك بنصيب .



(١) تربية الأولاد فى الإسلام ، عبد الله ناصح علوان .

المبحث الثالث

[يا أبا عمير... ماذا فعل النغير ؟]

لم تكن مشاعر رسول الله ﷺ وحبه الأطفال قصراً على أطفال بيت النبوة الطاهر ، إنما هو منهج عامل به كل الأطفال ، إرساءً لقواعد التربية السليمة ، وإبرازاً لكيفية معامله الأطفال ، بما يناسب احتياجاتهم النفسية ، وقدراتهم العقلية ، وتصوراتهم الطفولية .

وهذا أنس بن مالك رضي الله عنه يهدينا زهرة عطرة الأنسام رائعة الظلال تبثنا من المعانى ما يملأ الجوانح ويعطر الأركان حيث قال :

« كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقاً ، وكان لى أخ يقال له : أبو عمير ، قال : أحسبه فطيماً ، قال : فكان إذا جاء رسول الله فرآه قال : « **يا أبا عمير ، ماذا فعل النغير ، قال : فكان يلعب به** » [(١)] .

أن تفيض رحمة وحناناً وتواضعاً على أطفالك فلذه كبدك وسعادة دنياك وأمل آخرتك فتلك هى الفطرة الطبيعية للأبوة الصادقة الحانية ، أما أن تضم بتلك المشاعر الفياضة كل الأطفال ، قربوا أبو بعدوا ، فأنت إذاً لست إنساناً يحمل بين جوانحه قلباً رقيقاً ، إنما أنت قلب رقيق صِيغَ كأروع ما يكون الإنسان :

أبو عمير ، من هو ؟ .

طفل فطيم لصحابيين جليلين ، هما أبو طلحة وأم سليم رضى الله عنهما ، وكان رسول الله ﷺ كلما رآه هش وبش له ، وسأله مداعباً عن

---

(١) صحيح البخارى وم. ـم ، واللفلظ لمسلم برقم (٢١٥٠) .

عصفور كان يلعب به .

وأى شيء فى حياة طفل فطيم أهم من لعبة حبيبة إلى قلبه ، قريبه إلى نفسه ، إنها دنياه التى يتحرك فى دائرتها ، ويرسم بها من خيالاته واقعاً جميلاً يتفاعل معه ، ولهذا فجميل فى حس الطفل أن يجد من يهتم بعالمه الرائع هذا، بل ويعايشه فيه ولو للحظات قلائل ، إذ أن تلك اللحظات تترك فى نفس الطفل إحساساً رائعاً باهتمام الآخرين واعترافهم بوجوده وكينونته وحبهم إياه ، فيتبوأ مكانته شيئاً فشيئاً على خارطة الحياة الفاعله الجادة السوية .

« ولا شك أن الطفل يقضى رحلة عمره وبين يديه قائمة من الحاجات المتعددة من جسمية واقتصادية ونفسية وعقلية واجتماعية وتعليمية ودينية وترويحية وغيرها ، يطالب بها من حوله ، ويتوقع دائماً استجابة الآخرين له ، وإلا أصيب بالإحباط وتختلف درجة احتياجه لكل نوعية من هذه الاحتياجات المتعددة طبقاً للمرحلة العمرية التى يمر بها ، والتى تتحدد من خلالها حاجاته الأكثر إلحاحاً ،و بالتالى يتحد موقفه من الآخرين ، وموقف الآخرين منه .

والأسرة ألصق المجتمعات بحياة الطفل ، وهى المسئولة عن توفير كل هذه الإحتياجات إما داخلها ، أو من خلال خدمات مؤسسات البيئية « كالمدرسة أو النادى » ، وحيث أن الأسرة تصاحب الفرد خلال مراحل تنشئته اجتماعياً ، وتتعاون مع البيئة فى تغطية كل حاجاته الأساسية ، لذلك فلها الدور الأكبر فى تلبية حاجاته النفسية والاجتماعية منذ الطفولة المبكره ، والتى لا تظهر آثاها إلا فى مرحلة الشباب ، وأهم هذه الحاجات النفسية هو الحاجة إلى الحب « إذ » يتوق كل إنسان الى أن يشعر أنه مرغوب فيه من الآخرين ، وبالتالى يبادلهم نفس الشعور ، وتنشأ هذه الحاجة عند الطفل فى السنوات الأولى من عمره من خلال علاقته مع أمه وأبيه وأخوته « والمحيطين به » وتفاعله معهم فى المواقف ،

ويكتسب هذه القدرة من خلال معاملتهم له ، فالحب للطفل هو الغذاء النفسي الذى تنمو وتنضج عليه شخصيته ، كما يتغذى جسمه على الطعام فإن نفسه تتغذى على الحب والقبول .

والحب الواعي المستنير يقتضينا أن نبدأ أولاً بإحاطة الطفل بجو من دفء شعورنا وحناننا وإقبالنا بإعطائه من أنفسنا في سخاء ، فإن ذلك خليق بأن يملأه ثقة بنا واطمئناناً إلينا ، وبالتالى ثقة بنفسه واطمئناناً إلى العالم من حوله ، وهو بأشد الحاجة إلى هذه الثقة لكى يخطو الخطوة التالية فى مسيرته نحو النضج .

« إن شعور الطفل بتقدير الكبار من أسرته ينبه فيه خير ما عنده ، ويبعث لديه الحماس للقيام بخير ما يستطيع ، أما إن لقى الإستهانة والتحقير أو الإشاحة وعدم الإكتراث ، فلن يبعث ذلك فى نفسه إلا الشعور بالمرارة والعجز ، فقدرات الطفل تتغذى وتنمو على التشجيع ، ولكنها تضمر وتموت على التفريع والتثبيط والإهمال » [1] .

لذا فخليق بالأمهات والآباء على وجه الخصوص والمربين بوجه عام ، الوعى بكل مرحلة من مراحل الطفل ، وما تتطلبه من احتياجات واهتمامات ، فاللعب فى حياة الطفل لا يقل أهمية عن أنشطة الحياة الأخرى ، ففيه عالمه الرائع ، الذى تنمو خلاله خيالات الطفل وقدراته ، وتوظف فيه أفكاره وطاقاته فتنطلق تلك الطاعات نحو عالم الجد فى ثقة وثبات ، بفضل اهتمام الكبار بهم ، ومعايشتهم عالمهم الرائع البرئ ، وتوجيههم في رفق ولين ، وملاطفتهم فى حب وتواضع ، وتعليمهم فى صبر وإخلاص ، وتلك هى بعض القواعد الإسلامية السامية التى ربى رسول الله ﷺ عليها أطفال الصحابة الكرام ...

---

(١) أطفالنا وحاجاتهم النفسية . د / كلير فهيم .

« ويوم يسير المربون على هذه السُنن ، ويلتزمون هذه القواعد ، يكونون قد حرروا من لهم عليهم حق التربية من العوامل التى تؤدى إلى تحطيم الشخصية ، وهدر الكرامة الإنسانية ، ويكونون كذلك قد رفعوا من مستوى الولد النفسى والأخلاقى والعقلى ، وأصبح فى الحياة إنساناً سوياً » (١) .

(١) تربية الأولاد فى الإسلام ، الشيخ / عبد الله ناصح علون .

المبحث الرابع
[أتأذن لي أن أعطيه الأشياخ]

« إذا كان الولد ... منذ أن يولد أمانة بيد مربيه ، فالإسلام يأمرهم ويحتم عليهم أن يغرسوا فيه منذ أن يفتح عينيه ، أصول الصحة النفسية ، التي تؤهله لأن يكون إنساناً ذا عقل ناضج ، وتفكير سليم ، وتصرف متزن وإرادة مستعليه .

كذلك عليهم أن يحرروا الولد من كل العوامل التي تغض من كرامته واعتباره ، وتحطّم من كيانه وشخصيته ، والتي تجعله ينظر إلى الحياة نظرة حقد وكراهية وتشاؤم » [1] .

لهذا كان رسول الله ﷺ – وهو الترجمة العلمية للإسلام وآدابه – حريصاً كل الحرص على مشاعر الناشئة ، واحترام وجودهم كقوة مؤثرة ومتأثرة بالحياة.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : أتى النبى ﷺ بقدح فشرب وعن يمينه غلام أصغر القوم والأشياخ عن يساره ، **فقال : يا غلام أتأذن لى أن أعطيه الأشياخ** ، قال : ما كنت لأوثر بفضلى منك أحداً يارسول الله ، فأعطاه إياه » [2] .

ما أبشع أن يعامل الكبير الطفل على أنه نكره لا كيان له ولا وجود ، إنها بشاعة تعتصر قلب الصغير وتزيده مع الأيام مرارة وغربه عن مجتمعه وتورثه عدم الثقة بنفسه أو بملكاته وقدراته ومن ثم لا ينمو بداخله الإحساس بالمسئولية تجاه الآخرين ، إذ كيف يأبه لمجتمع لا يأبه له وكيف يعترف بحقوق من لا يعترفون بحقوقه ؟ .

---

(١) تربية الأولاد فى الإسلام (١/٣٠١) .

(٢) صحيح البخارى ، باب فى الشرب ، كتاب المساقاة .

إن الغلام يقف عن يمين رسول الله ﷺ والأشياخ عن يساره ، وفيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

كان يمكن لرسول الله ﷺ أن يعطى القدح من يليه من الأشياخ متجاهلاً الغلام ، أو متعللاً بأحقية الكبير فى التفضيل أو مبرراً إيثاره لهم على الغلام بالسبق في الإسلام واليد الطولى فى الدعوة وحسن البلاء فى الجهاد ، غير أن رسول الله ﷺ ما كان يتغافل حق الغلام فى البدء به إذ هو فى الميمنة ، ولهذا استأذنه فى البدء بالأشياخ نزولاً على حقه ، إكباراً لهم وإجلالاً « أتأذن لي » أدب جم يحمل بين طياته أروع اعتراف بحرية الغلام فى التنازل عن حقه أو التمسك به .

استشعر الغلام هذه الحرية ، ووازن بين الخير فى تنازله للأشياخ توقيراً لهم واحتراماً لمكانتهم ، وبين الخير فى الشرب بعد رسول الله ﷺ حيث الشرف الرفيع والبركة النامية ، فآثر كرامة الشرب بعد رسول الله ﷺ ، ولهذا أجاب غير متردد ولا وجل ، ما كنت لأوثر بفضلى منك أحداً يارسول الله .

خير الغلام فاختار ويا لحسن ما اختار .

أن يضع فاه على موضع فِيّ رسول الله ﷺ فذلك شرف الدهر ومكرمة الزمان .

غلام تربى على تلك المبادئ السامية ، وعومل بهذا الأسلوب الراقى وكفلت له جميع الحقوق ، وأتيحت له حكمة الموازنة بين الأمور ، واحترمت حريته فى الاختيار ، ماذا يمكن أن يكون ذلك الغلام إذا بلغ مبلغ الرجال ؟ .

هل يمكن أن يكون إلا حبر الأمة الجليل وعالمها الملهم وفقيهها المؤيد ؟!.

« فعلى هذه الفضيلة من الثبات والجرأة فى الحق يجب أن ننشئ أولادنا فهى من أهم الأصول النفسية التى يسعى المسلم جهاده إلى غرسها فى نفس

المؤمن – وكلها – تتضافر فى تكوين الشخصية المسلمة – وكلها – تشير إلى أن الإسلام فى تحقيق التربية الاجتماعية لدى الأفراد ، يجب أن يبدأ من نقطة بناء الفرد بناءً صحيحاً ، وأن أى تربية أو تكوين لا يقوم على هذه الأصول النفسية التى وضع قواعدها الإسلام ، فإن التربية تكون فاشلة ، وأن ارتباط الفرد بالمجتمع يكون أوهن من بيت العنكبوت .

لذا أوجب على الآباء والمربين جميعاً أن يرسخوا فى نفوس أطفالهم ، خلق الإقدام والجرأة فى الحق ، وغيرها من الأصول النفسية النبيلة ، حتى إذا شب الأولاد عن الطوق ، وبلغوا السن التى تؤهلهم أن يخوضوا خضم الحياة ، أدوا ما عليهم من واجبات ومسئوليات دون تواكل أو تردد أو قنوط ، ثم بالتالى قاموا بكل الإلتزامات نحو الآخرين ، دون إهمال الحق أو تقصير فى الواجب ، بل كانت معاملاتهم وآدابهم وأخلاقهم الإجتماعية على أحسن ما رأى الناس ، وأسمى مما يتصوره الخيال » [(١)] .

ولهذا كان اهتمام رسول الله ﷺ بالأطفال والصبية وتلك رعايته لهم ، رعاية زارع بارع استصلح الأرض حتى صارت قوية خصيبة ثم زرع وتعهد البذرة ورعاها حق رعايتها حتى صارت شجرة سامقة وارفة الظلال طيبة الثمار يطلب الفضل عندها كل باحث عن الفضيلة ويستظل بها كل رائح وغاد .

وإلا فهل يؤمل فى نبتة تركت فى مهب الريح تتقاذفها الأنواء بلا تعهد ولا رعاية حتى اعوج ساقها وذبلت أوراقها ، وجفت نضارتها أن تزهر أو تثمر أو تصبح يوماً ما مستقيمة البناء ؟ .

---

(١) تربية الأولاد فى الإسلام

المبحث الخامس
[كان النبي ﷺ يفعله]

تنوعت أساليب رسول الله ﷺ في تربية النشأ ، حسب اختلاف المواقف ، وتفاوت الأعمار ، واختلاف الشخصيات ، غير أن مؤداها إعداد رجال أصحاء أقوياء ، يؤددون واجباتهم بهمة وقناعة ورضا ، ويأخذون حقوقهم بأدب وعفة وشجاعة ، ويتنازلون – إن تنازلوا – برفعة همة ، وقوة نفس ، وحسن خلق .

وبين أيدينا الآن صورة أخرى لا تقل روعة عن أخواتها ، تفيض تواضعاً وحكمه ، وتشرق في النفس منهجاً نبوياً مباركاً سار على نهجه الصحابة الكرام واقتفى أثره كل مقتد حكيم .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال : « **كان النبي ﷺ يفعله** »[1] .

إن رسول الله ﷺ إذ يسلم على الصبية كلما مر بهم يحتضن قلوبهم وينشر باقات الأمان في دروبهم ، ويعلمهم الإعتداد بأنفسهم ويدربهم على الرجولة المتكاملة ، ويرشدهم إلى ما لهم على المجتمع من حقوق ويبثهم آداب الطريق وروح الإسلام فيه .

هذه هي مسئولية الداعي إلى الله عز وجل ، وتلك أخلاق كل جندي في ساحة الدعوة حمل على كاهله أمانة تربية الأمة .

وهكذا نحسب الدعاة العاملين العاملين المخلصين – والله حسيبهم – فجزاهم الله خير الجزاء عن الإسلام والمسلمين .

---

(١) صحيح البخاري ، باب التسليم على الصبيان ، كتاب الإستئذان .

غير أن المؤلم فى واقع الدعوة ، وجود بعض من يقحمون أنفسهم على الدعوة وليسوا من أهلها ، ويزجون بأنفسهم فى مصاف الدعاة زوراً وبهتاناً ، إنما هم أخذوا من العلم القليل ، وبعدوا عن أخلاق رسول الله ﷺ الكثير الكثير ، فكان فى أفقهم ضيق ، وفى خلقهم حزونه ، وفى مخالطتهم وعورة ، فكانوا جهلاء متعالمين ، ويصدون عن الدين صدوداً ، فما هم إلا وبالاً على الدعوة ، وصورة شائهة للعلم والعلماء .

فلا يكون حظ الأمة منهم إلا كما فى الصبار من قسوة الشوك وبشاعة المرارة ، وما نصيب الناشئة منهم بأفضل من هذا ، فربما مر أحدهم على جماعة الصبيان يلعبون ويمرحون ، فلا يكون نصيبهم منه غير الزجر والتوبيخ ، وتسفيه الأحلام ، أو على أفضل الأحوال تجاهلهم وعدم الاكتراث لهم ، تحقيراً لشأنهم ، واستهانة بخطرهم ، ثم ينتظرون من هؤلاء الصبية حين يشبون شباباً يافعاً أن يمشوا فى ركابهم ، ويتمسحون بأعتابهم ، يطلبون العلم ويتلمسون الهداية من طريقهم ؟! .

وهل يمكن هذا ؟ وقد طبعت صورهم الفظة المنفرة فى قلوب هذا النشأ فصدتهم - أو كادت - عن المنهج القويم ، وما ذاك لعيب فى المنهج - وحاشاه من العيب والقصور - إنما هى عدم أمانة تلك الفئة فى التبليغ وعدم اقتفائهم أثر المربى العظيم ﷺ ، وعدم التخلق بأخلاقه الرائعة ﷺ ، التى يجب أن نربى بها أنفسنا أولاً قبل أن نتصدى لتربية الآخرين .

إن المربى زارع مخلص ، وبنّاء أمين ، زارع مخلص ينحنى إلى الأرض ليحرثها ويمهدها ، ثم يعد فى جوفها محضناً أميناً حانياً لبذرة بكر لا عهد لها بالحياة ، ويتعهدها بالرى فتنبت فيها من بعد أسرار الحياة ، وبناء أمين يغوص فى بطن الأرض ليمهدها ويجهزها ، ثم يعد فى جوفها محضناً قوياً لبذرة منشأة

لا عهد لها بالحياة ، ويتعهدها بالأمانة فتحتوى جذُورها من بعد أسرار الحياة ، يتعهد الزارع بذرته فما تلبث أن تنبثق عن الأرض فيأة تحتاج من يد الزارع إلى دعائم تؤمنها عصف الريح ، ومن وقته وجهده إلى رعاية تأمنها غزو الحشائش وتربص الحشرات .

ويتعهد البناء بذرته فما تلبث أن تنبثق عن الأرض بداية تحتاج من يد البناء إلى دعائم تؤمنها عصف الظواهر الطبيعية ، ومن وقته وجهده إلى رعاية تأمنها غزو التصدع وتربص التقادم .

وكلما أمعن الزارع فى رعاية نبتته وتدعيمها ، كلما اشتدت قوية مستقيمة تقاوم الأنواء ، وكلما أمعن البناء فى رعاية منشأته وتدعيمها ، كلما اشتدت قوية مستقيمة تقاوم الإنهيار ، وهكذا يظل حدب الزارع المخلص عليها ، وتعهده لها حتى تشب نبتته من فيأة منبثقة عن رحم الأرض إلى نخلة باسقة فى عنان السماء ، وإذ بجذورها تحتضن جوف الأرض ، وفروعها تحتضن رحابة الفضاء ، وإذا بثمارها طُعم وغذاء .

وهكذا يظل حدب البنّاء الأمين لمنشأته وتعهده لها حتى تشب من بداية منبثقة عن رحم الأرض إلى منشأته باسقه فى عنان السماء ، وإذا بقواعدها تحتضن جوف الأرض ، وعمدها تحتضن رحابة الفضاء ، وإذا بحجراتها سكن وإيواء .

فهل من زارع طُعم وغذاء ؟ .

وهل من بانٍ سكنٌ وإيواء ؟ .

الفصل الرابع
[تواضعه ﷺ للخدم والموالي]

المبحث الأول : فتنطلق به حيث شاءت .

المبحث الثانى : فجعلت تصخب عليه وتذمر عليه .

المبحث الثالث : أنا أصعها بيدى .

المبحث الأول
[فتنطلق به حيث شاءت]

طالما أوصى رسول الله ﷺ بالموالي والعبيد والخدم خيراً ، وطالما ذب عنهم كبر المستكبرين ، وصلف المغرورين ، وقسوة الظالمين ، ذلك أنهم ضعفاء الجانب ، أسراء الأبدان ، كسيرى النفوس ، حزانا القلوب ، ينظر إليهم المجتمع دائماً على أنهم دون الدونية بمراحل .

ولهذا كان رسول الله ﷺ دائم العمل على إلغاء تلك الطبقية المزرية ، مؤكداً أن القضية من بدايتها هي توزيع للأدوار – ليس إلا – .

فهذا خادم ، وذاك مخدوم ، وهذا سيد وذاك مسود ، وهذا غنى ، وذاك معوز ، وتلك حكمة الله فى خلقه ، وقسمه لعباده ، يتكامل المجتمع ويترابط ، ويتفاعل فيما بينه ، ويجزى المحسن بإحسانه ، ويُأخذ المسيء بإساءته .

ليس الغنى إذاً لكرامة الغنى على الله عز وجل ، ولا الفقر لهوان الفقير عليه .

وإلا ، فكيف بفرعون وهامان وقارون ؟ .

وأين هم من أهل الصفة الأطهار – رضى الله عنهم – ؟ .

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) ﴾ [سبأ : ٣٥ ، ٣٧] .

تلك حقيقة طالما أكدها رسول الله ﷺ وحاول نفشها فى الضمير الإنسانى

« كلكم لآدم ، وآدم من تراب » .

« إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم » .

« لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » .

الكثير من التوجيهات التى تعيد الموازين إلى نصابها الصحيح ، وتؤكد حرمة الإنسان مهما كان جنسه أو لونه أو مهنته ، أو حالته من الغنى والفقر .

توجيهات شرعية رائعة ، وعتها القلوب الحية ، وتشربتها الضمائر اليقظة ، ونام عنها من ملك عليه الكبر جوانحه ، فأعمى قلبه وأصم ضميره .

« عن أنس بن مالك قال : كانت الأمة من إماء المدينة ، لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت » [(١)] .

قليلون هم من يسعون فى حوائج الضعفاء المعوزين ، ذلك أنهم لا يرجى منهم مقابل ، ولا ينتظر من ورائهم نفع ، أما من كان أجره على الله وحاجته ليست إلا إليه ، فما أطيب نفسه حين يسعى فى حاجات هؤلاء المعدمين ، وما أسعد قلبه حين يرفع عنهم المعاناة ، ويعيد البهجة إلى قلوبهم الكسيرة ، ذلك أنه يعلم أن **« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ،و من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة »** [(٢)] .

وأى كريم على الله أنت إذا كان الله عز وجل فى حاجتك ؟!! .

هكذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى تقييم القلوب وتقدير العقول بميزان العقيدة الصحيح ، ولأنه ﷺ كان أسبق الأمة إلى كل خير يدعو إليه ، فقد كان

---

(١) البخارى ، باب الكبر ، كتاب الأدب .
(٢) البخارى ، كتاب : يظلم المسلم ولا يسلمه ، كتاب المظالم .

أكثر الناس تواضعاً ، وأطوعهم لذوى الحاجة منهم .

لا يألو جهداً فى السعى لتلبية وقضاء حوائجهم طائعاً سعيداً ، منفقاً جهده ووقته ، وماله ، إنفاق الواثق بربه ، الراغب فيما عنده ، لا يعوقه عن ذلك عظم مسئولياته ، ولا تثنيه رفعة منزلته ، إنما هو المتواضع الرؤوف الرحيم ، الذى يأخذ بيده أمة – أى أمة – من إماء المدينة فتنطلق به حيث شاءت ، ليقضى لها حاجتها بطيب نفس ، دونما تأفف أو تسويف ، ورسول الله ﷺ لم تمس يده يد امرأة قط ، إلا أن تكون من محارمه ، أو ملك يمينه ، إنما جاء التعبير هكذا ، ليدل على مدى مسارعته ﷺ فى قضاء حوائج الناس – كل الناس – حتى الإماء – وقتما شاءوا ، وأيما كانت حوائجهم .

فرسمت بعدك للعباد حكومة ... لا سوقة فيها ولا أمراء

الله فوق الخلق فيها وحده ... والناس تحت لوائه أكفاء [(١)]

بل طالما حث ﷺ على عتق الرقيق ، والإحسان إلى الجوارى والإماء .

عن أبى موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من كانت له جاريه فعالها فأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران** » [(٢)] .

هكذا كان تواضع رسول الله ﷺ للإماء والعبيد ، وهكذا كانت دعوته وحضه الأشراف على عتق إيمائهم بل والزواج منهن ، وما تحمل تلك الدعوة الكريمة من بث فضيلة التواضع فى أشراف الأمة ، إذ يكون التحول عظيماً فى نفس السيد حين تتحول الأمة التى هى فى حسه حفنة دراهم أو دنانير إلى زوجة تحمل اسمه ، وتؤتمن على عرضه ، وتصبح أماً لأولاده ، ولا يحدث

---

(١) ديوان شوقى .

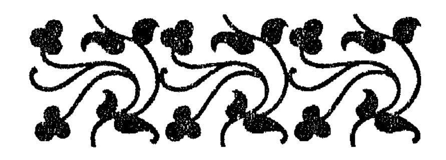
(٢) البخارى ، باب فضل من أدب جاريته وعلمها ، كتاب الرهن فى الحضر .

ذلك التحول الضخم فى نفس السيد إلا أن يؤتى حظاً وافراً من التواضع وخفض الجناح ، وترتيب الحقائق فى ضميره ، وإعادتها إلى سيرتها الأولى « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

تلك الوصية الرحيمة بالإماء لم تكن عظة وترغيباً من قبل رسول الله ﷺ إلى الأمة الإسلامية ، إنما كانت واقعاً حياً فى حياته الكريمة المباركة ، إذ اعتق أم المؤمنين صفية بنت حيى رضى الله عنها ، وتزوجها لتصبح أم المؤمنين بعد أن كانت سبياً يمكن أن تباع وتشترى .

وكذا ريحانة رضى الله عنها حين عرض عليها العتق إلا أنها آثرت أن تكون ملك يمين فرقاً على نفسها ألا تفى بحق رسول الله ﷺ كزوج .

وهكذا قد جمع رسول الله ﷺ للإماء والعبيد والفقراء الضعفاء الوصية القولية إلى الوصية الفعلية ، فكانت أبلغ فى الحث وأجدى فى التأسّى به ﷺ .



المبحث الثانى
فجعلت تصخب عليه وتزمر عليه

إن قمة الكمال الإنسان أن يقف الإنسان على حدود بشريته ، فليس هو بالخالق ليسمو على خلقه ، وليس بالرزّاق ليمنّ على من يرزقهم إنما هو عبد ضعيف ، كلما ازداد علماً ، استشعر جهله ، وكلما إزداد إيماناً استيقن عجزه ، وكلما ازداد إخلاصاً ، اكتشف تقصيره ، وكلما إزداد رفعة إزداد تواضعاً وحسن خلق ، ومن هذا المنطلق ، كان رسول الله ﷺ وهو أكمل البشر « لا يترفع على عبيده وإمائه فى مأكل ولا ملبس ، ويخدم من خدمه ، وكان يحب المساكين ويجالسهم ، ويشهد جنائزهم ، ولا يحقر فقيراً لفقره » [(١)] .

عن أنس رضي الله عنه قال : « **انطلق رسول الله ﷺ إلى أم أيمن ، فانطلقت معه فناولته إناء فيه شراب ، قال : فلا أدرى أصادفه صائماً أو لم يرده ، فجعلت تصْخب عليه وتذمر عليه** » [(٢)] .

أم أيمن ، أمة سوداء البشرة ، لكن الله تبارك وتعالى قد أنار قلبها بنور الحق ، اسمها بركة ، وقد كان لها من اسمها الحظ الوفير .

كانت لعبد الله بن عبد المطلب ، فورثها رسول الله ﷺ عن أبيه ، فاحتضنته فطيماً ، وقامت على رعايته خادماً مخلصة أمنية – ثم عادت به – طفلاً كسير النفس ، نازف القلب مرتعد الخطى مظلم اليوم ، مجهول الغد – من رحلتهما التى استودعا فيها – بطن الثرى – آمنة بنت وهب ، ليصبح بعدها الطفل يتيم الأب والأم ، فلا دفء ولا مأوى ، ولا أمل فى حياة !

---

(١) الرحيق المختوم .

(٢) مسلم برقم (٢٤٥٣) .

وهناك كانت رحمة الله عز وجل بنبيه ﷺ ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ ﴾ [الضحى : ٦ - ٨] .

وكانت أم أيمن من رحمة الله تبارك وتعالى بنبيه ، فضمته إلى قلبها ، وضمدت جراح قلبه بعطفها وحنانها ، وكانت له أماً بعد أمه ، فأحبها رسول الله ﷺ حب الولد لأمه ، وعاملها معاملة الإبن البار حتى أنه ليقول : « **أم أيمن أمي بعد أمي** » (١) .

فزادها الله تبارك وتعالى بحب رسول الله ﷺ خيراً وبركة ، لهذا كان رسول الله ﷺ رفيقاً بها ، حريصاً عليها أشد الحرص فأعتقها ثم زوجها أحب الناس إليه - زيد بن حارثة - رضي الله عنه فولدت له أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ ، وابن أحب الناس إليه - زيد وبركة - فما أسعد آل بيت كان لهم أوفر الحظ من حب رسول الله ﷺ .

وظل رسول الله ﷺ دائم البر بها ، واسع الحدب عليها ، والرعاية لها ، يزورها ويصلها ، وينطلق إليها انطلاقة قلب حانٍ عطوف يتوددها ويسعى لإسعادها .

وتناوله أم أيمن رضى الله عنها بقلب الأم الرءوم التى تؤثر وحيدها بأطيب ما لديها ثم لا يهولها إلا امتناع رسول الله ﷺ عن شرابها ، فتنفجر غاضبة صاحبة مستنكرة تصرف رسول الله ﷺ ، ودنما البحث فى سبب امتناعه عن الشراب إذْ لم تر فيه إلا الإبن الذى لم يطع أمّه ، فاستثار غضبها .

ولم ير فيها رسول الله ﷺ أنها أمته وبعض إرثه ، وإنما هى فى قلبه الأم الحنون ، وهو لها الإبن البار المحب ، الذى لم يزده صخبها وتذمرها عليه إلا

---

(١) هامش صحيح الإمام مسلم .

شفقة وحلماً وتواضعاً لها ، فيا لها من خالدة فى القلوب المؤمنة ، خلوداً لم تنعم به صاحبة ملك أو عز أو سلطان ، وإنما بلغت ذلك فى قلوب الأمة ؛ بحب رسول الله ﷺ إياها ، وتواضعه لها .

هذا هو رسول الله ﷺ الذى يقرأ على الأمة ليل نهار قول الله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

ذلك أن « المتكبر إذا علم استذل المتعلمين ، وانتهرهم وامتن عليهم ، وإن خالط الناس استجهلهم ، واستحقرهم ، وإن تولى عملاً استبد واستأثر » [(١)] .

فهو القاس دائماً ، الفظ أبداً ، الأعمى عن نور الحق ، المحروم من فيوضات اليقين ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[غافر : ٣٥] .

ولهذا كانت رفعه أخلاقه ﷺ مثار إعجاب الجميع ، فشهد بها المحبين والمبغضين على السواء :

شهدا الأنام بفضله حتى العدا والفضل ما شهدت به الأعداء

فاجتمعت عليه القلوب ، واستضاءت به العقول والأرواح ، فكان هو الحبيب القريب إلى القلوب المؤمنة ، كما كان هو غيظ قلوب الملاحدة الكافرين ، ولم يزد رسول الله ﷺ سمو أخلاقه إلا رفعة وإجلالاً ، ولم تزده رفعته إلا تواضعاً وإحساناً ، ذلك أن رسول الله ﷺ أعرف الناس بربه ، وأعلمهم بشرعه ، وأكثرهم مسارعة فى طاعته ، وأعظمهم حرصاً على رضاه ، وأحرصهم إجتناباً لما يغضبه سبحانه وتعالى .

---

(١) الإحياء (٣) .

المبحث الثالث
[أنا أضعها بيدي]

بعد انصرام الدهور والقرون ، أخيراً وبعد جهد جهيد ، انفرجت أجفان الضمير الإنسانى انفراجة متثاقلة ؛ حين أثقل كاهل بعض أفراده الظلم الواقع على طبقة العبيد والإماء ، فانطلقت بعض الأصوات على استحياء ، تنادى بإلغاء الرق وتحرير الرقيق .

وأثمر صدى تلك الدعوة هنا فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر على يد محمد على والى مصر ، حيث ألغى الرق ، ثم استصدر القانون الدولى لإلغاء الرق فى الثلث الأول من القرن العشرين .

وهكذا قد ألقى الرق بصورته الساذجة البدائية ، لكنه قد استفحل واستشرى بصوره البشعة الوحشية ، ومأساة كل المستعبدين فى طول الدنيا وعرضها ، بل ومأساة من تحرر من قيد الرق الساذج ، لكنه ظل يعانى قسوة المذلة والهوان ، ومطاردة لعنة سواد اللون على يد بعض بيض الأبشار سود القلوب تفوق كثيراً مأساة الرق فى عصور إزدهاره ، ومأساة الهنود الحمر فى أمريكا إلى عهد قريب ، ومأساة العنصرية المقيته فى جنوب إفريقيا ، وفى كثير من البلدان خير شاهد على ازدواجية مشاعر هذا العصر الحديث !! .

أما الدعوة الصادقة لتحرير الرق قلباً وقالباً ، فقد انطلقت منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، حيث رغب القرآن الكريم فى تحرير الرقيق ، وأجزل عليه المثوبة والجزاء ، وحيث عمل رسول الله ﷺ جاهداً ، وبكل طاقاته على تحرير الرقيق من القيود الجسدية ، والقيود النفسية ، فانطلقوا عمالقه قادوا وسادوا وتربعوا على عرش قلوب الأمة «رضى الله عنهم» بحب الله لهم ورضاه عنهم .

ففي صحيح مسلم « عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر ، فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذه [١] ، قال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟ ، فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : « يا أبا بكر ! لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك » ، فأتاهم أبو بكر فقال : يا إخوتاه ! أغضبتكم ؟ ، قالوا : لا . يغفر الله لك يا أخي » [٢] .

فيا لهم من سعداء ، يغضب الرب عز وجل لغضبهم ، ويعاتب فيهم رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق أفضل خلق الله بعد رسول الله ﷺ .

ونحن الآن في ضيافة عملاق منهم لم يكن رقه لسواد اللون ، وإنما كان ضحية الغدر والطمع والخديعة ، ثم كانت رحمة رسول الله ﷺ به وتواضعه له سبباً لفك رقبته من أغلاق الرق والإستعباد ، إنه سلمان الفارسي رضي الله عنه ، يقول سلمان الفارسي رضي الله عنه .

« ثم قال لي رسول الله ﷺ : كاتب يا سلمان » فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير [٣] وأربعين أوقية ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أعينوا أخاكم » فأعانوني في النخل : الرجل بثلاثين ودية ، والرجل بعشرين ودية ، والرجل بخمس عشرة ودية ، والرجل بعشرة ، يعين الرجل بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية . فقال لي رسول الله ﷺ : « اذهب يا سلمان ففقر لها ، فإذا فرغت فائتني أكن أنا أضعها بيدي » ، قال : ففقرت وأعانني أصحابي ، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته ، فخرج رسول

---

(١) وكان أبو سفيان رضي الله عنه لم يسلم بعد وقتئذ .
(٢) مسلم برقم (٢٥٠٤) .
(٣) فقير النخله : حفرة تحفر للفسيلة إذا حولت لتغرس فيها .

الله ﷺ معى إليها ، فجعلنا نقرب له الودى ، ويضعه رسول الله ﷺ بيده حتى إذا فرغنا .

فوالذى نفس سلمان بيده ، ما ماتت منها ودية واحدة ، فأديت النخل وبقى على المال ، فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن ، فقال : « ما فعل الفارسى المكاتب ؟ » وقال : فدعيت له ، قال : « خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان » ، قال : قلت : وأين تقع هذه مما عليّ يارسول الله ؟! قال : « خذها فإن الله سيؤدى بها عنك » قال : فأخذتها فوزنت لهم منها – والذى نفس سلمان بيده – أربعين أوقية : فأوفيتهم حقهم ، وعتق سلمان ، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حراً ، ثم لم يفتنى معه مشهد »[1] .

هذه هى الدعوة الحقيقة لتحرير الرقاب وإطلاق الرقيق من قيد الرق القاسى المقيت دعوة لم تنظم فى بنود وقوانين ، ولم تطلق شعارات وأفكار ، وإنما كانت واقعاً عملياً فى حياة رسول الله ﷺ ، سعد بها الأرقاء بعد ثقل الحزن وطول الرضوخ .

يقترح رسول الله ﷺ على سلمان رضي الله عنه أن يكاتب سيده على عتقه نظير ثمن معين يحدده السيد ، على عادة المكاتبين ممن يرغبون فى الخلاص ، ولهم صنعة أو باب تكسب يمكن أن يسددوا به الثمن المحدد فى الكتاب .

لكن سلمان رضي الله عنه ليس عنده ما يفى بكتابه ، ولهذا يدعو رسول الله ﷺ - الصحابة الكرام لعون أخيهم ، بالأمس وحتى لحظته تلك كان العبد الصاغر الذليل .

---

(١) البداية والنهاية .

أما الآن ، فقد أصبح أخاً لكل مسلم ، وإن عز جاهه وعظم سلطانه ، فقد جمعتهم أخوة الإسلام ، وأظلتهم مظلة الشرع الحنيف .

ويهرع الصحابة الأماجد لعون أخيهم كل بقدر طاقته ، فجزاهم الله خيراً من إخوان ، ثم يأتى الدور الرئيسى والجهد الجهيد ، دور رسول الله ﷺ الذى اختاره لنفسه ، إذ يغرس بيده الشريفة ثلثمائة فسيلة ، وما يتطلبه ذلك العمل من الجهد المشقة ، وهكذا فقد قضى رسول الله ﷺ عن سلمان رضي الله عنه شطر كتابه ، ثم أعطاه مثل البيضة ذهباً ليقضى الشطر الآخر حيث بارك الله فيها فأدّت وأرجحت ، فصلى الله وسلم وبارك على نبى الرحمة عظيم التواضع للمؤمنين خفيض الجناح لهم .

وقصة استرقاق سلمان الفارسى رضي الله عنه تحمل أروع المعانى وأكرمها لسلمان رضي الله عنه ، كما تحمل أبشع المعانى وأقساها لمن اغتال حريته وكبله فى قيد العبودية ، لكن !! لكن الاسترقاق - على بشاعته - قد قرب سلمان رضي الله عنه من الحقيقة التى طالما قطع البلاد طولاً وعرضاً بحثاً عنها ، والتى لولا الإسترقاق ربما لم يصل إليها يوماً ما ، فمن المحن تأتى المنح ، وسبحان مقدر الأقدار .

وقصة سلمان رضي الله عنه فى البحث عن الحقيقة من الروعة والسمو بمكان أغرى القلب بمعايشتها ، وأغرى القلم بخطها - وإن كنا لسنا بصدد الترجمة لهاذا الصحابى الجليل رضي الله عنه - علها تكون قوة دفع لكل باحث عن الحقيقة مهاجر إلى الله ورسوله .

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : حدثنى سلمان الفارسى رضي الله عنه - من فيه - قال : كنت رجلاً فارسياً من أصل أصبهان ، من قرية يقال لها جى ، وكان أبى دهقان قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، فلم يزل حبه

إياى حتى حبسى فى بيته كما تحبس الجارية ، واجتهدت فى المجوسية حتى كنت قطن النار التى يوقدها لا يتركها تخبو ساعة ، قال : وكانت لأبى ضيعة عظيمة ، قال : فشغل فى بنيان له يوماً فقال لى : يا بنى إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى ، فاذهب إليها فأطلعها ، وأمرنى فيها ببعض ما يريد . ثم قال لى : ولا تحتبس عنى ، فإنك إن احتبست عنى كنت أهم إلى من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شيء من أمرى . قال : فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى إليها فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون .

وكنت لا أدرى ما أمر الناس – لحبس أبى إياى فى بيته – فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ، ورغبت فى أمرهم ، وقلت : هذا والله خير من الدين الذين نحن عليه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبى فلم آتها ، ثم قلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام ، فرجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن أمره كله ، فلما جئت قال : أى بنى أين كنت ؟ ألم أكن أعهد إليك ما عهدته ؟ قال : قلت : يا أبة مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم ، فأعجبنى ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس .

قال : أى بنى ، ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه . قال : قلت: كلا والله إنه خير من ديننا ، قال : فخافنى فجعل فى رجلى قيداً ، ثم حبسنى فى بيته ، قال : وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم . قال : فقدم عليهم ركب من الشام ، فجاؤنى النصارى ، فأخبرونى بهم ، فقلت : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى ، قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبرونى بهم ، فألقيت الحديد من رجلى ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام ، فلما أتيتها قلت :

من أفضل أهل هذا الدين علماً ؟ ، قالوا : الأسقف فى الكنيسة ، قال : فجئته فقلت له : إنى قد رغبت فى هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك وأخدمك فى كنيستك وأتعلم منك فأصلى معك . قال : ادخل ، فدخلت معه ، فكان رجل سوء ، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ، ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق ، قال : وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات ، واجتمعت النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ، ويرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً ، قال : فقالوا لى : وما علمك بذلك ؟ قال : فقلت لهم : أنا أدلكم على كنزه ، قالوا : فدلنا ، قال : فأريتهم موضعه ، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً ، فلما رأوها قالوا : لا ندفنه أبداً ، قال : فصلبوه ورجموه بالحجاره ، وجاؤا برجل آخر فوضعوه مكانه .

قال سلمان : فما رأيت رجلاً لا يصلى الخمس أرى أنه أفضل منه أزهد فى الدنيا ، ولا أرغب فى الآخرة ، ولا أدأب ليلاً ونهاراً ، قال : فأحببته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله ، قال : فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : إنى قد كنت معك ، وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى ، فإلى من توصى بى ؟ وبمَ تأمرنى به ؟ ، قال : أى بنى ، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس ، وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه ، إلا رجلاً بالموصل وهو فلان ، وهو على ما كنت عليه فالحق به ، قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل ، فقلت : يا فلان إن فلاناً أوصانى عند موته أن ألحق بك ، وأخبرنى أنك على أمره ، فقال لى : قم عندى ، فأقمت عنده ، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصى بى ، وبم

تأمرني ؟ قال : يا بني ، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين ، وهو فلان فالحق به ، فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين ، فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباى ، فقال : أقم عندى ، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت له : يا فلان ، إن فلاناً كان أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ، وبمَ تأمرني ؟ ، قال يا بني ، والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجل بعمورية من أرض الروم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فائته ، فإنه على أمرنا .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية ، فأخبرته خبرى فقال : أقم عندى ، فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم . قال : واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنيمة ،قال : ثم نزل به أمر الله ، فلما حضر قلت له : يا فلان ، إنى كنت مع فلان ، فأوصانى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ ، وبم تأمرنى ؟ ، قال أى بنى ، والله ما أعلم أصبح أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكن قد أظل زمان نبى مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ، قال : ثم مات وغيب ، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث ، ثم مر بى نفر من كلب تجار ، فقلت لهم احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنيمتى هذه ، قالوا : نعم ، فأعطيتهموها وحملونى معهم حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى فباعونى إلى رجل يهودى عبداً ، فكنت عنده ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذى

وصف لى صاحبى ، ولم يحق فى نفسى ، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة ، فابتعاعنى منه فاحتملنى إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى لها ، فأقمت بها ، وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر إلى المدينة ، فوالله إنى لفى رأس عذق لسيدى أعمل فيه بعض العمل ، وسيدى جالس تحتى ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال : يا فلان ، قاتل الله بنى قيله ، والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجل قدم من مكة اليوم ، يزعمون أنه نبى ، قال سلمان : فلما سمعتها أخذتنى الرعدة حتى ظننت أنى ساقط على سيدى ، فنزلت عن النخلة ، فجعلت أقول لابن عمه : ماذا تقول ؟ قال : فغضب سيدى ، فلكمنى لكمة شديدة ، ثم قال : مالك ولهذا ؟ ، أقبل على عملك ، قال : فقلت : لا شىء ، إنما أردت أن أستثبته عما قال . قال : وقد كان عندى شىء قد جمعته ، فلما أمسيت أخذته . ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ - وهو بقباء - فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شىء كان عندى للصدقة ، فرأيتكم أحق به من غيركم . قال : فقربته إليه ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه « كلوا » وأمسك يده فلم يأكل ، فقلت فى نفسى : هذه واحدة ، ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ثم جئته فقلت له : إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها . قال : فأكل رسول الله ﷺ منها ، وأمر أصحابه فأكلوا معه ، قال : فقلت فى نفسى : هاتان ثنتان . قال : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازه رجل من أصحابه وعليه شملتان وهو جالس فى أصحابه ، فسلمت عليه ، ثم استدبرته أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى ؟ فلما رآنى رسول الله ﷺ استدبرته عرف أنى أستثبت فى شىء وصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى

الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبله وأبكى ، فقال لى رسول الله ﷺ « تحول » فتحولت بين يديه ، فقصصت عليه حديثى كما حدثتك يا ابن عباس ، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذاك أصحابه ، ثم شغل سلمان بالرق حتى فاتته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد ، ثم قال لى رسول الله ﷺ « **كاتب ياسلمان** » [1] ، ثم كانت قصة عتق سلمان التى أسلفنا آنفاً .

ما أجمل البحث عن الحقائق العليا ، والانشغال بعظائم الأمور ، وما أهون التضحيات – وإن جلت – فى سبيل الوصول إلى الغايات الأسمى ، حتى وإن قصر العمر عنها ، فحسب الباحث عن الحقيقة أنه كان يمضى قدماً فى البحث وأملاً فى الوصول .

﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠)** ﴾ [النساء : ١٠٠] .

إن أسمى الحقائق هى حقائق العقيدة والدين ، وأسمى الوسائل لإدراكها هى الهجرة الدائمة إلى الله ورسوله – طلباً لتلك الحقائق العظيمة – ، والتى لم تنته بالفتح المبين كما هو شأن الهجرة الأولى ، إنما هى قائمة قيام الدين مستمره استمرار الصراع القائم بين الحق والباطل .

وأسمى التضحيات هى التضحية بالدم والنفس ، هى التضحية بالحياة ، لكن هناك تضحيات فوق التضحية بالحياة ، إنها التضحية بالحرية والانطلاق ، إذ التضحية بالحياة فى طريق الهجرة إلى الله عز وجل ، هى حياة وانطلاق لكل معانى الحياة ، أما التضحية بالحرية – وإن عُدّ صاحبها بين الأحياء – فإنها

---

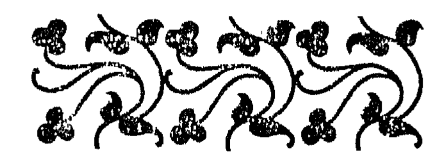
(١) البداية والنهاية . (٢/٣١٠) .

تكبيل وذبح لكل معانى الحياة وذاك هو ما قدم الباحث عن الحقيقة ، المهاجر إلى الله ورسوله ، سلمان الفارسى رضي الله عنه الذى جادت نفسه بأجل التضحيات ولم يحق فى نفسه .

هذا هو سلمان رضي الله عنه الذى أمضى زهرة شبابه بحثاً عن الحق والحقيقة ، ودفع حريته ثمناً للوصول إلى مبتغاه ، ثم انطلق بعد تحرره بفضل الله ثم بفضل رسوله ﷺ وعلى مدى حياته المباركة التى امتدت « ما بين مائتين وخمسين إلى ثلثمائه وخمسين سنة على خلاف بين المؤرخين » وكأنما أمد الله عز وجل فى عمره المبارك عوضاً عما اغتيل من شبابه فى الرق والمذلة ، فكان دليل رشد وصدق إلى الله ورسوله ، وقدوة عليا لكل مهاجر إلى الله ورسوله ، وذلك ببركة تواضع رسول الله ﷺ له ، وحرصه على عتق رقبته من قيود الرق التى تبدد الطاقات وتغتال الملكات .

كانت حرية سلمان رضي الله عنه ثمناً للوصول إلى الحقيقة ، وكان الوصول إلى الحقيقة سبباً لعتقه وخلاصه فى الدنيا والآخرة .

فصلى الله وسلم وبارك على من حمل للدنيا أعظم الحقائق وأجلها .



الفصل الخامس

أ - ثمرة التربية
ب - متواضعون في مدرسة الرسول ﷺ

المبحث الأول : بلى أحلبها لكم .
المبحث الثاني : ذرى عليّ وأنا أحرك لكِ .
المبحث الثالث : أوسعوا لأميركم .
المبحث الرابع : أبو العيال أحق أن يحمل .
المبحث الخامس : إن الليل لهم .
المبحث السادس : فكرهنا أن نجمع عليه عملين .
المبحث السابع : ورجعت وأنا عمر .
المبحث الثامن : فلا أنساب بينهم .
المبحث التاسع : أكون في غبراء الناس أحب إليّ .

أ - ثمرة التربية

من منطلق : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) ﴾ [الشعراء : ٢١٥] ، كان هذا التواضع الجمّ من رسول الله لصحابته الكرام رضى الله عنهم ، فاستظلوا من هجير الكبر والغرور بظل جناحه الخفيض ، وتعلموا أن التواضع قمة سامقة بين منحدرين سحيقين هما الكِبر بصلفه وغروره ، والضّعة بذلها وهوانها ، وتشربوا خلق التواضع منه سلوكاً نابضاً لا نظريات جامدة ، إذن أن « المعرفة الذهنية ليست هى المعرفة التى يريديها أو يعترف بها الإسلام ، فإنها معرفة سطحية وميتة ،ولا تفعل شيئاً فى واقع الحياة ، ولا تؤثر شيئاً فى سلوك الإنسان ، وإذاً فوجودها كعدم وجودها سواء » (١) .

أما أن يكون خلق التواضع ممارسة طبيعية ، تتم فى تلقائية ويسر ، بل تكون من مفردات شخصية الرسول الكريم ﷺ وبدهيات أخلاقيه ، فإنه بذلك يصبح مدعاة لتأسّى الصحابة الكرام رضى الله عنهم بهذا الخلق العظيم ، وتأسّى الأمة من بعدهم ، إذ كيف تتأبىّ نفسى قد عايشت قمة التواضع فى قمة البشر ﷺ أن تتأسّى به ، فتنهل من فيض تواضعه ولين جانبه ﷺ .

ومن أبَتْ عليه نفسه الجامحة ذلك التأسّى ، فليستحضر عظمة رسول الله ﷺ ، وفى مقابل صورة نفسه الوضيعة المتعالية ، حينها سيكون العلاج إن شاء الله .

إن رسول الله ﷺ ، قائد البشرية إلى طريق الله عز وجل ، كان ولابد أن يكون التواضع من مقومات شخصيته القيادية ، حتى تجتمع عليه القلوب وتهفوا

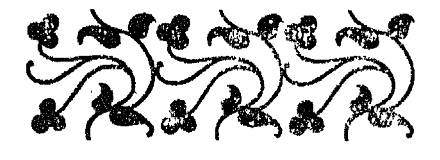
---

(١) منهج التربية الإسلامية / ٢ .

إليــه الأرواح ، ولهـذا فقـد خلّقه الله سبحانـه وتعالى بهذا الخلق العظيم ، و« وبهذه التهيئة الربانية لقيادة البشرية ، كان رسول الله ﷺ يرعى أصحابه ، ويوجههم ويربيهم على منهج الإسلام ، وهؤلاء الذين تلقوا منه مباشرة وتربوا على عينه ﷺ هم الذين كتبوا التاريخ »[1] .

لهذا فإننا سوف نقترب قليلاً من عالم هؤلاء الأفذاذ ، لنرى كيف كان تأسيهم برسول الله ﷺ ، وكيف هذبتهم الأخلاق النبوية العالية ، وكيف صاغتهم تلك الصياغة الرائعة ، فكانوا هم الجيل الفريد ، الذى ما عرفت البشرية نظيراً له – بعد الأنبياء – .

هيا بنا نقترب من عالمهم رويداً رويداً ، لنرى حسن تأسيهم برسول الله ﷺ ، وكيف انطبع تواضعه ﷺ عقيدة وسلوكاً .



---

(١) المصدر السابق .

المبحث الأول : بلى أحلبها لكم

قال علماء السير : كان أبو بكر رضي الله عنه يحلب للحي أغنامهم ، فلما بويع قالت جارية من الحي : الآن لا يحلب لنا منائح دارنا فسمعها فقال : بلى لأحلبنها لكم وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت فيه » (١) .

المبحث الثاني : ذري عليّ وأنا أحرك لك

روى أسلم ، قال : خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم ، حتى إذا كنا بصرار إذ نار تؤرث فقال : يا أسلم ، أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد ، فانطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء « وكره أن يقول النار » ، قالت المرأة : وعليك السلام ، فقال : أأدنو ؟ قالت : إدن بخير أو دع ، فقال : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد ، قال : فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : من الجوع : قال : وأي شيء في القدر؟ قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا . الله بيننا وبين عمر ! فقال : أي رحمك الله ما يدري عمر بكم ؟ قالت : يتولى أمرنا ويغفل عنا ؟ فأقبل عليّ فقال : انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيه كبة شحم فقال : احمله عليّ ، قلت : أنا أحمله عنك ، قال : احمله

---

(١) صفة الصفوة .

عليّ « مرتين أو ثلاثة » كل ذلك أقول : أنا أحمله عنك ، فقال آخر ذلك : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ؟ ، فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى أتينا إليها ، فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول : ذرى عليّ وأنا أحرك لك ، وجعل ينفخ تحت القدر ، وكان ذا لحية عظيمة ، فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته ، حتى أنضج أدم القدر وقال : ابغينى شيئاً ، فأتته بصحفة فأفرغها فيها وجعل يقول : أطعميهم وأنا أسطح لك ، فلم يزل حتى شعبوا ، ثم خلّى عندها فضل ذلك ، وقام وقمت معه فجعلت تقول : جزاء الله خيراً ، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين ، فيقول : قولى خيراً ، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله ، ثم تنحى ناحية ، ثم استقبلها وربض مربض السبع ، فجعلت تقول : إن لك لشأنا غير هذا ، وهو لا يكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا ، فقام وهو يحمد الله ، ثم أقبل عليّ فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم »[1] .

المبحث الثالث : أوسعوا لأميركم

روى أن أبا هريرة رضي الله عنه أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة بالمدينة لمروان وهو يقول : أوسعوا لأميركم ليمر وهو يحمل حزمة الحطب»[2] .

---

(١) الدين والحياة ، نشرات التوعية الدينية ، المجلد الأول ، عن كتاب الخلفاء الراشدون ، ص (٢٣٦) . ط ١٩٦٠ .

(٢) منهاج المسلم .

المبحث الرابع : أبو العيال أحق أن يحمل

روى أن علياً رضي الله عنه اشترى لحماً فجعله في ملحفته فقيل له : يحمل عليك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا أبو العيال أحق أن يحمل [١] .

المبحث الخامس : إن الليل لهم

عن عبد الله الرومى قال : كان عثمان رضي الله عنه يلى وضوء الليل بنفسه فقيل له : لو أمرت بعض الخدم فكفوك ؟ فقال : لا إن الليل لهم يستريحون فيه » [٢] .

المبحث السادس : فكرهنا أن نجمع عليه عملين

خرج أبو نعيم فى الحلية .. عن أبى قلابه أن رجلاً دخل على سلمان رضي الله عنه وهو يعجن ، فقال : ما هذا ؟ فقال : بعثنا الخادم فى عمل فكرهنا أن نجمع عليه عملين ، أو قال : صنعتين » [٣] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .
(٣) مختصر حياة الصحابة .

المبحث السابع : ورجعت وأنا عمر

روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج أن يطفأ فقال الضيف : أقوم إلى المصباح فأصلحه ، فقال : ليس من كرم الرجل أن يستخدم مضيفه فقال الضيف : إذا أنبه الغلام ، فقال عمر : إنها أول نومة نامها فلا تنبهه ، وذهب إلى البطه وملأ المصباح زيتاً ولما قال له الضيف : قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين ؟ أجاب قائلاً : ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء ، وخير الناس من كان عند الله متواضعاً [١] .

المبحث الثامن :فلا أنساب بينهم

زين العابدين ، عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنهم أجمعين ، فتى قلما جاد الزمان بشبيه له ، عالم عامل عابد تقي نقي ورع متواضع لم يغره نسبه عن الإجتهاد في العبادة ، ولم يركن إلى كونه حفيد رسول الله ﷺ .

« ولقد رآه طاووس بن كيسان ذات مرة يقف في ظلال البيت العتيق وهو يتململ تململ السليم ويبكي بكاء السقيم ويدعو دعاء المضطر ، فوقف ينتظره حتى كف عن بكائه وفرغ من دعائه ، تقدم نحوه وقال له :

يا بن رسول الله ، رأيتك على حالتك هذه ولك فضائل ثلاث أرجو أن تؤمنك من الخوف ، فقال زين العابدين : وما هن ياطاووس ؟ .

---

(١) مختصر حياة الصحابة .

فقال : إحداهن : أنك ابن رسول الله ﷺ ، والثانية : شفاعة جدك لك ، والثالثة : رحمة الله .

فقال له : ياطاووس ، إن انتسابي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لا يؤمنني بعد ، وأنْ سمعت قول الله عز وجل ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) ﴾ [المؤمنون : ١٠١] ، أو شفاعة جدى لى فإن الله علت كلمته يقول : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، وأما رحمة الله تعالى فهو يقول : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] [1] .

أولئك إخواني الذين أحبهم ... وأؤثرهم بالود من بين إخواني

وما منهم إلا كريم مهذب ... حبيب إلى إخوانه خير خوان

المبحث التاسع : أكون في غبراء الناس أحب إليّ

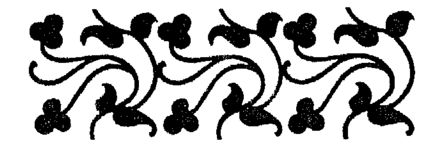
وهذا أويس بن عامر رضي الله عنه يؤثر أن يكون مع ضعاف الناس وصعاليكهم ، ولا يُحتفل به ولا يؤبه له ، وهو من هو ؟! .

أخرج مسلم بسنده عن أُسَيْر بن جابر قال : كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم : أفيكم أُوَيْس بن عامر ؟؟ حتى أتى على أويس فقال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال : من مرادٍ ثم من قرَنٍ ؟ ، قال : نعم ، فقال : كان بك برصٌ فبرأت منه إلا موضع درهم ؟ قال : نعم ، قال :

---

(١) صورة من حياة التابعين .

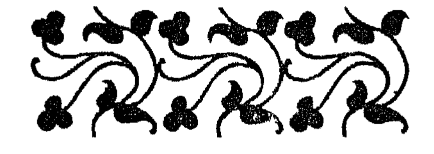
ألك والدة ، قال : نعم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتي عليكم أويس بن عامرٍ مع أمداد من أهل اليمن ، من مُرَادٍ ، ثم من قَرنٍ ، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بر ، لو أقسم على الله لأبرّه ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل ، فاستغفر لي ، فاستغفر له ، فقال عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة ، قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال : أكون في غبراء الناس أحب إليّ » [1] .



---

(١) آفات العلم . أ / محمد بن سعيد بن رسلان .

الفهرس









من أحدث إصداراتنا

مجموعة

واحة الخلق العظيم



دار الإيمان ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
للطبع والنشر والتوزيع تليفون وفاكس : ٥٤٥٧٧٦٩ - تليفون : ٥٤٤٦٤٩٦٠
E-mail: dar_aleman@hotmail.com